

Gaylord

PAMPHLET BINDER

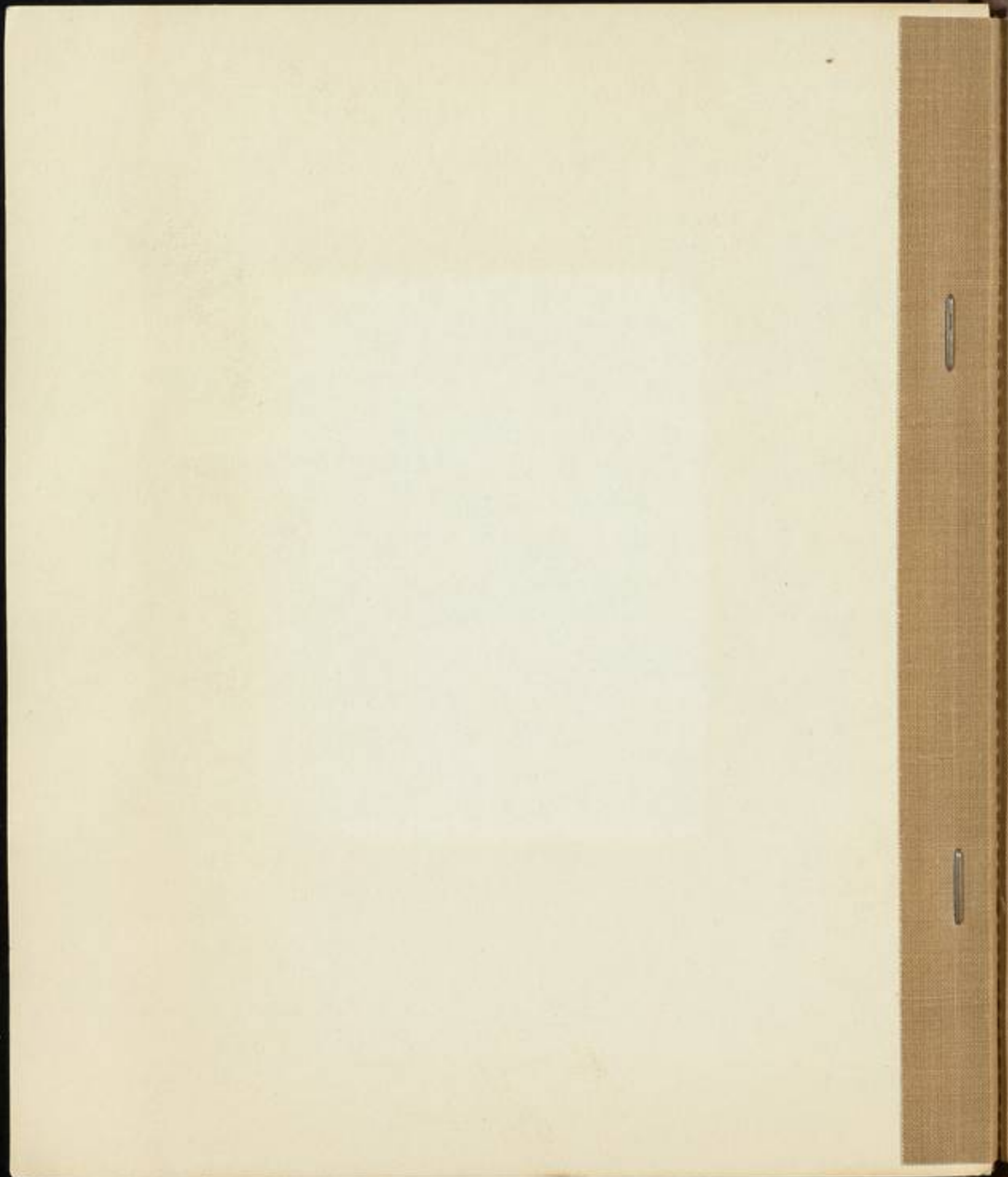
Syracuse, N. Y.

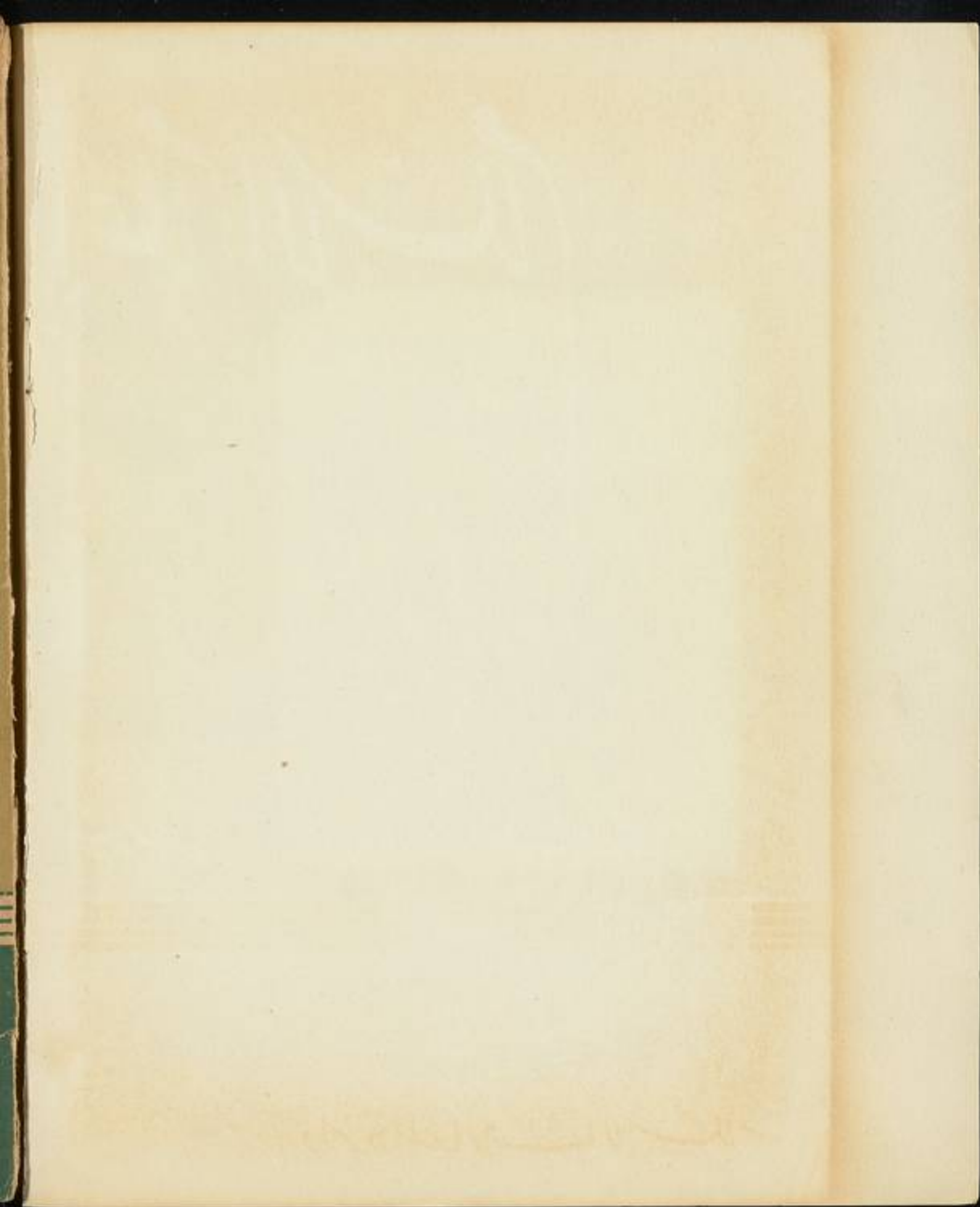
Stockton, Calif.

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES







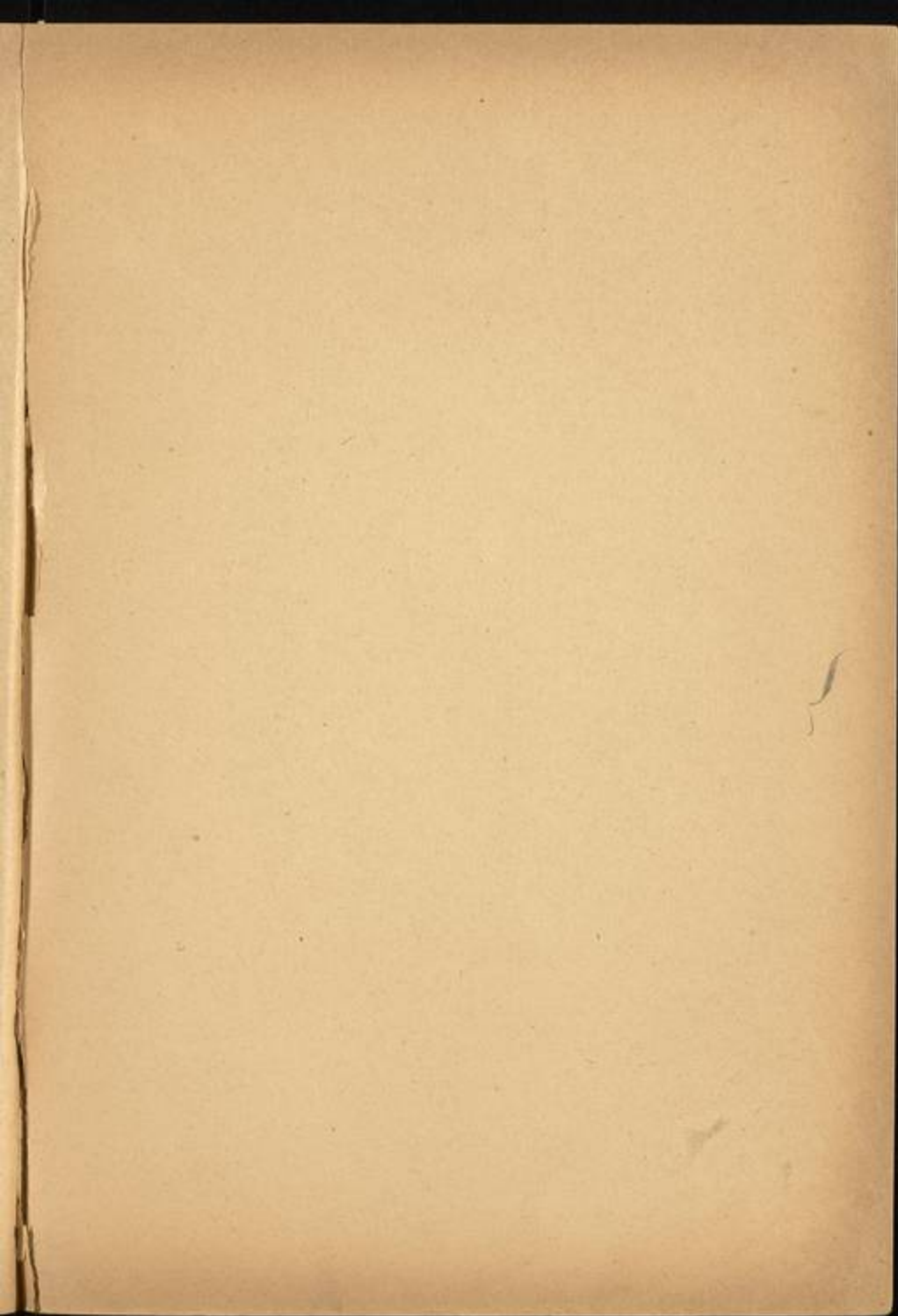
أعلام الإسلام

أبراهيم جلال

د. ط
المعز الفياض



دائرة المعارف الإسلامية



مجلة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

اعلام الاسلام

المعز لدين الله

ابراهيم جلال

مكتبة دارالعلم والشريعة
دار الجيعة الكائن في
عيسى البوابي الحسيني وشركاه

893.791

5215

ديباجة

لا يكون منصفاً لذمة التاريخ ولا وفيّاً لأهل الأقدار من يتصدى لترجمة علم من أعلام المسلمين كالمعز لدين الله الفاطمي فيرضى بالنزر القليل الذي تصدق به بعض المؤرخين مزويّاً بين ثنايا سطورهم في قالب مسّخه التعصب والدعاية المأجورة والخوف من بطش الخلفاء والملوك .

فقد ابتلى هذا الإمام وآبؤه من قبل وأعقابه من بعده بالغض من أقدارهم والنيل من أنسابهم والطعن في عقائدهم ، وهو أثر من آثار التنافس على سلطان الدنيا قامت على آثاره الحروب والفتن والدعايات العريضة ، فصبروا عليها صبر الكرام حتى تصدّى للذود عنهم وتطهير أحسابهم الكريمة من درن الخصومة وسخائم الصدور أبعد الناس عن التشيع فيهم وأدناهم الى مذاهب أهل السنة ، إقراراً بفضلهم وسخاء نفوسهم وسماحة أخلاقهم .

ولقد كان العباسيون من عهد خلفائهم الأولين أسرف خلق الله قتلاً

وأمعنهم تنكيلاً وتشريداً في أبناء عمهم أسباط علي وفاطمة الزهراء رضوان
الله عليهما ، فقد تولى كبره أبو جعفر المنصور عام ١٤٥ ثم مضى على سنته
ولده الهادي فقتلهم بوادي فنج بمكة عام ١٦٩

وفر من القتل اخوان من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب هما يحيى

وإدريس ولدا عبد الله بن الحسن

ثم فتحت أول ثغرة بالملك العباسي العريض نفذ منها عبد الرحمن بن
هشام الأموي فاراً من أيديهم فأجاز البحر الى الأندلس فملكها من عاملهم
عبد الرحمن بن يوسف الفهري وخطب لبني العباس سنة واحدة ثم قطع
خطبتهم وجدد أيام الأمويين .

وتوالى أعقاب ابن هشام حتى ملكهم عبد الرحمن الناصر ، فرأى
بني العباس في النزاع الأخير تناولهم أيدي الموالى والقواد وتعبت بخلفائهم
خلعاً وقتلاً .

فلما قتل مؤنس الخادم مولاه الخليفة المتقدر سنة ٣٢٧ . جاهر الناصر
باطماعه فنودي به أمير المؤمنين الناصر وضاعف طمعه في ذلك اللقب ظهور
امام الفاطميين على مقربة منه بافر يقية والشيعية تناديه بأمر المؤمنين .

ولقد كان الناصر عظيماً جليلاً القدر حريصاً بلقب الخلافة وكان نداً
معاصراً للمعز الفاطمي يعتد به ولا يستهين بعداوته وبأسه .

ونهب الأخوان يحيى وإدريس العلويان على أطراف دولة العباسيين

من الشرق والغرب ، أما يحيى ففر إلى أقصى المشرق حيث بلاد الطبرستان
فأسلم على يديه الديلم واستجابوا لامامته خمسين عاما من ٢٥٠ الى ٣٠١ هـ
وأما أخوه إدريس ففر الى أقصى المغرب فأسلم على يديه ملوك البربر واستجابوا
لإمامته فكانت له ولأعقابها دولة الأدارسة التي عاشت من ١٧٣ - ٣١٣

واندفع سيل العلويين على تراث بنى العباس فنزل بلاد اليمن ابراهيم بن
طباطبا وهو علوي حسنى وأحيا بها المذهب الشيعى الزيدى عام ٢٩٠
وانتشرت دعوة العبيديين (الفاطميين) بالمغرب فاستجاب لهم بنو عمهم
باليمن وخطبوا لأئمتهم على منابرهم

والفاطميون طبقة من الشيعة الاسماعيلية يقولون بما يقول به سائر فرق
الشيعة « ان النبي صلى الله عليه وسلم أوصى بالإمامة لجدهم على بن أبى طالب
كرم الله وجهه »

ولكن تلك الوصية لم تعرف لأحد من أهل النقل ولم يقل بها أحد
سواهم من المسلمين

ويقولون إن الإمامة انتقلت بعد على إلى ولده الحسن ثم إلى الحسين
ثم إلى على زين العابدين ثم إلى ابنه محمد الباقر فولده جعفر الصادق فولده
اسماعيل فولده محمد المكنوم فولده جعفر المصدق فولده محمد الحبيب فولده
عبيد الله المهدي جد البيت الفاطمى أو العبيدى

وكان عبيد الله المهدي ينزل بلدة سلمية من أعمال حمص الشام مستخفيا

من بطش الخليفة المكتفي لا يجسر أحد من شيعته أن يجهر بإمامته وكان هذا حال سائر الأئمة من أهل البيت فكانت شيعتهم تعرف الإمام بالإمام المكتوم .

وبث المهدي دعائه يبشرون بإمامته في سائر الآفاق فاستجاب له أهل اليمن وبايعه القرامطة ببلاد البحرين ولكنهم أغرقوا وغلوا في تشيعهم وكان أنشط دعائه أبو عبد الله الشيعي فدخل المغرب عام ٢٨٦ ، والمغرب لذلك العهد ولايات ثلاث : فكان المغرب الأدنى وفيه برقة وطرابلس ، ثم المغرب الأوسط وفيه ولاية إفريقية (تونس) وما نسميه اليوم بلاد الجزائر ، ثم المغرب الأقصى

وكان المغرب الأوسط أكثر البلاد عمراً

وكانت القيروان حاضرة لإفريقية ومقر ولاية بني العباس وهم بنو الأغلب أما المغرب الأوسط (الجزائر) فكانت حاضرتة تلمسان ويسكنه قبائل من البربر أعظمهم كتامة ومقرها بالشمال الشرقي ، ويلها زناتة وهوارة ثم صنهاجة وأعلى جباله أوراس منبع الفتن الدائمة والثورات العنيفة ثم المغرب الأقصى وحاضرتة لذلك العهد مدينة فاس مقر الأئمة الأدارسة وأشهر قبائله مكناسة

وكان دخول أبي عبد الله الشيعي الى المغرب الأوسط يدعو لإمامة عبيد الله المهدي الفاطمي فنصرتة قبائل كتامة وكانوا من أول أمرهم مخلصين أوفياء للفاطميين

وظل يدعو ويساجل ويقاتل المعاندين من القبائل ويصد عدوان
بني الأغلِب ولاة إفريقية عشر سنوات من ٢٨٦ - ٢٩٦ ، وأعانتَه قبائل
كتامة حتى ظهر على ابن الأغلِب وطرده من سائر المغرب واستولى على القيروان
سنة ٢٩٦ واستدعى من الشرق مولاة الامام عبيد الله المهدي

وخرج المهدي مع ولده ولي عهده أبي القاسم فطارده الخليفة المكتفي
العباسي وأغرى به والي مصر فقآته المهدي ونجا الى بلاد برقة

وتواترت كتب الخليفة الى ولاة برقة وإفريقية والمغرب بالقبض عليه
فقات الجميع حتى بلغ مدينة سجلماسة وهي أقصى مدن المغرب مما يلي المحيط
وأدناها الى بلاد غانة بالسودان فاعتقله واليها ابن مدرار

ولقد كان هذا حال السابقين من عطاء الرجال الذين أفلتوا من قبضة
بني العباس وشادوا لأنفسهم ولأعقابهم ملكا راسخ البنيان ، فكم لاقى
عبد الرحمن بن هشام الأموي من المخاطر والأهوال وهو يعبر أنهار سوريا
ويتخطى المسالخ مع ولده حتى دخل الأندلس . وم تجرع إدريس بن الحسن
العلوي حين فر من الرشيد العباسي الى بلاد المغرب ، فلقد سلط الرشيد عليه
واليه ابراهيم بن الأغلِب لينشر بين الناس الدعاية بالقدح في نسبه بأبيه فلم
يعن ذلك شيئاً ومضى إدريس في دعوته مؤيداً من ربه فسلط الرشيد عليه
رجلا اسمه الشماخ نفاطه متظاهرا بالولاء والمحبة ، ثم قتلَه بـعـطـور مسمومة
فيما يروى .

ولما تم النصر لأبي عبد الله الشيعي قام إلى أقصى المغرب وأخرج المهدي وولده من سجن سجلماسة وحمله إلى إفريقية فبايعه الناس بيعة عامة ونودي بإمامته سنة ٢٩٧ هـ .

ولقد كان لقب أمير المؤمنين من سمة الخلافة الإسلامية . لقب به لأول مرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتوارثه الخلفاء من بعده سمة لا يشاركون فيها أحد سواهم .

غير أن الشيعة خصوا علي بن أبي طالب رضي الله عنه باسم الإمام نعتا له بالإمامة التي هي أخت الخلافة وتعريضا بمذهبهم في أنه أحق بإمامة الصلاة من أبي بكر فخصوه بهذا اللقب ولئن يسوقون إليه منصب الخلافة من بعده فكانوا لهم يسمون بالإمام ما داموا يدعون لهم في الخفاء حتى إذا استولوا على الدولة يحولون اللقب فيما بعد إلى أمير المؤمنين . ودعا الشيعة للمهدي ولقبوه بالإمام وكان هذا اللقب لولده القائم الذي كان الإمام من بعده فلما استوثق لهم الأمر دعوا للمنصور والد المعز بأمر المؤمنين .

وبني المهدي مدينة المهديّة لتكون حصنا للفاطميين بإفريقية عام ٣٠٣ هـ وكان لها بالبحر ثغر يلجأ إليه أسطول عظيم وافتتح جزيرة صقلية وإقليم جنوه الإيطالي وعاش بالمغرب أربعاً وعشرين عاماً ورأى بعينه حافده المعز وقد ولد بالمهديّة عام ٣١٨ هـ .

أحساب هاشم

إن أسوأ ما عرض لنا من بحوث في تاريخ المعز وآبائه ما تقوله عليهم
المأجورون المتملقون لبني العباس ومن نحا نحوهم ونقل عنهم من الذين كتبوا
ذلك القسم من التاريخ ، مع أن التاريخ فن يحتاج إلى مأخذ متعددة ومعارف
متنوعة وحسن نظر وثبت. والأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم
أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران وأحوال المجتمع لم يؤمن فيها
العثور والزلل .

وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات
والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا .

تلك هي قواعد تمحيص الأخبار وضعها إمام من أكبر مؤرخي الإسلام
وهو عبد الرحمن بن خلدون ، فقد حاول لأول مرة في التاريخ الإسلامي أن
يضع مقاييس للأحداث يمتحن بها صحيحها من زائفها فكان في عمله نسيج
وحده بين علماء المسلمين وغيرهم من مؤرخي الأمم الأخرى .

وابن خلدون بطبيعة مولده ونشأته المغربية أكثر علماء التاريخ المأما بشئون
الفاطميين أو العبيديين ولذلك كان عمدتي في كثير من المراجع كما كان المرجع
لكثير من المؤرخين حتى الذين كتبوا عن المغرب كصاحب كتاب الاستقصا
وهو من فحول علماء المغرب، وقد تأثر بأسلوب ابن خلدون ونظراته في التاريخ
تقى الدين المقرئ وكان يعاصره بمصر وتولى الحسبة والتوقيع ونيابة الحكم
أيام السلطان الظاهر برقوق فتغلغل في أعمال الدولة وأتى على تفصيلها أيام
الفاطميين .

وعلى ضوء ما بسطناه من قواعد تمحيص الروايات نستعرض ما ذكره
بعض المؤرخين من النيل من نسب الفاطميين والقول بأنهم مدسوسون على
النسب الشريف وأنهم ينتمون أصلا إلى رجل يدعى ديسان بن سعيد الخرمي
والكلام في نسب العبيديين (الفاطميين) لم يخلق على التحقيق إلا في
عام ٤٠٣ هـ أي بعد أكثر من قرن على ذبوع أمرهم وانتشار خلافتهم وامتداد
سلطانهم وبعد أن أوغلوا في أملاك العباسيين واقتطعوا منها المغرب بأمله
ومصر وسوريا واليمن والحرمين وبعض بلاد الجزيرة وضيقوا المسالك في
وجوههم حتى في بغداد حاضرة خلافتهم .

وما كان مرجع من قال بنفي نسبهم تحقيق علمي بحث فيه النسب، أو كتب
متداولة أو تلاوة مستفيضة من مصادر لا ينالها ريب أو شك، أو شهادات
متواترة ليس فيها زيغ ولا تحامل بل كان تسليما بمحض كتب في بغداد في

شهر ربيع الآخر سنة ٤٠٢ هـ بأمر الخليفة القادر العباسي في معنى الخلفاء
المصريين والقدح في أنسابهم وعقائدهم ، أخذ فيه خطوط القضاة والأئمة
والإشراف بما عندهم من العلم وقالوا في المحضر ما نصه :

هم منسوبون إلى ديسان بن سعيد الخرمي إخوان الكافرين ونظف
الشياطين شهادة يتقربون بها إلى الله وشهدوا جميعاً أن الناجم بمصر وهو
منصور بن نزار الملقب بالحاكم حكم الله عليه بالبوار والخزي والنكال هو ومن
تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس عليه وعليهم اللعنة أدياء خوارج لانسب
لهم في ولد علي بن أبي طالب وأن هذا الناجم هو وسلفه كفار نجار زنادقة
سفكوا الدماء وسبوا الأنبياء ولعنوا السلف وادعوا الربوبية .

(كتب في شهر ربيع الآخر سنة ٤٠٣ هـ)

ووقع على ذلك المحضر الشريف الرضي وأخوه المرتضى وابن الأزرقي
الموسوي ومحمد بن محمد بن محمد العلويون والقاضي أبو محمد الكفاني والقاضي
أبو القاسم الجزري والإمام أبو حامد الأسفراييني والقدوري والتنوخي .
هذا المحضر الذي أثبتنا نصه هو مصدر لكل من نفي نسب الفاطميين
من علي بن أبي طالب رضوان الله عليه فإذا جردناه من القدح واللعن المزري
كان نصه ما يأتي :

(يشهد الموقعون أن الحاكم ومن تقدمه من سلفه أدياء خوارج لانسب
لهم في ولد علي بن أبي طالب) .

ولقد كانت صحيفة ذلك المحضر خالية من السند والدليل العلمى الذى يدعمها اللهم إلا توقعات الذين قيل فى ألقابهم ما قيل .

لقد اختلف على بن أبى طالب مع رجل على امتلاك درع فمضى مع خصمه وهو أمير المؤمنين وخصمه يهودى إلى قاضيه فسأله إن كانت لديه بينة على دعواه فقال لا فمضى لليهودى بالدرع ولم يرض القاضى أن يقضى لإمام من أكبر أئمة المسلمين وهو الذى ولاه القضاء لأنه لم يأت بما يثبت دعواه فكيف يراد بعقولنا أن تسوغ تلك الدعوى التى لا سند لها إلا توقعات القائلين بها . على أننا إذا أحصينا كلمات ذلك المحضر لكانت جملتها ثمانين كلمة ولا تتجاوز كلمات الدعوى المزعومة ربع ما كتب وبأقبحها شتم ولعن ندع الحساب عليها لله .

فأية قيمة لدعوى طغت فيها الأحقاد على وقائعها ، وأى سند هذا الذى ينقض فيه أحد الشهود نفسه ذلك لأن ديوان الشريف الرضى يحمل إلينا تكذيباً بيناً للدعوى التى أراد أن يدعمها بتوقيعه فقد قال يحدث عن الخلفاء العاطميين بمصر :

ألبس النذل فى بلاد الأعادى وبمصر الخليفة العلوى
من أبوه أبى ومولاه مولا ي إذا ضامنى البعيد القصى
لف عمرقى بعرقه سيدا النا س جميعا محمد وعلى

فبأى القولين نأخذ كلام الشريف الرضى أنصدق ما أراد أن يركبه

بتوقيعه من طعن في نسب بني عمه فنال من أجله أجرا معجلا وهو نقابة الأشراف الطالبين في سائر الآفاق أم نصدق شعره الذي جاء على سجيته في ساعة خلى إلى نفسه دون مؤثر أو باعث إلا الحق والصدق .

وقد قال ابن خلدون في تعليقه على محضر أهل بغداد ما يأتي :

« إن شهادتهم كانت على السماع وقد تلون أهل بغداد بلون العباسيين في ذلك ولكن طبيعة الوجود كانت في الانقياد إلى الفاطميين وظهور كلمتهم حتى في مكة والمدينة وهذا من أكبر الأدلة على صحة نسبهم وإن جعل نسبهم إلى اليهود فهو آثم وأن شعر الشريف الرضى كله تثبيت لنسبهم » .
وقال العلامة المقرئ :

« إن بنى على بن أبي طالب رضى الله عنه كانوا إذ ذاك على غاية من وفور العدد وجلال القدر عند الشيعة فما الحامل لشيعتهم على الإعراض عنهم والدعاء لابن مجوسى أو لابن يهودى فهذا ما لا يفعله مخلوق ولو بلغ الغاية في الجهل والسخف وإنما جاء ذلك من قبل الضعفاء من خلفاء بنى العباس عندما غصوا بمكان الفاطميين الذين انتزعوا منهم بلاد المغرب ومصر والشام وديار بكر والحرمين واليمن وخطب لهم ببغداد نحو أربعين خطبة فلما عجز بنو العباس عن مقاومتهم أرادوا تنفير الكافة منهم بإشاعة الطعن في نسبهم » .

أما ذلك المحضر الذى كتب فى بغداد عام ٤٠٢ أيام القادر فقد شهد عليه شيعة بنى العباس الطاعنين فى النسب والمتطيرين من نسل على بن أبى طالب .

ولقد كان العلويون تحت ترقب الخوف من بنى العباس الذين كانوا بالمرصاد لهم ليقتالوهم فصاروا ما بين طريد وشريد وخائف يتربص ، ولاذوا بالاختفاء فما كاد يعرفهم أحد حتى تسمى محمد بن اسماعيل الإمام جد عبيد الله المهدي بالمكتوم سماه الشيعة بذلك عند اتفاقهم على إخفائه حذرا من أشياع بنى العباس .

وقال ابن الأثير في تاريخه الكامل جزء ثامن طبعة ليدن ص ١٨ في معرض الكلام عن نسب عبيد الله المهدي .

إن نسبه صحيح على ما ذكرناه وذهب كثير من العلويين العالمين بالانساب إلى موافقتهم أيضا ويشهد بصحة هذا القول ما قاله الشريف الرضى :

مامقامى على الهوان وعندى مقول صارم وأنف حى

ألبس الذل فى بلاد الأعادى وبمصر الخليفة العلوى

من أبوه أبى ومولاه مولا فى إذا ضامنى البعيد القصى

لف عرقى بعرقه سيدا النا س جميعا محمد وعلى

إن ذلى بذلك الجد عز وأوامى بذلك الربع رى

وإنما لم يودعها فى بعض ديوانه خوفا ، ولا حجة بما كتبه فى المحضر المتضمن القدر فى أنسابهم فإن الخوف يحمل على أكثر من هذا ، على أنه قد ورد ما يصدق ما ذكرته وهو أن القادر بالله لما بلغت هذه الأبيات أحضر القاضي أبا بكر بن الباقلانى وأرسله إلى الشريف أبى أحمد الموسوى والد الشريف الرضى يقول : قد عرفت منزلتك منا وما لا تزال عليه من الاعتداد بك

بصدق الموالاتة منك وما تقدم لك في الدولة من مواتف محمودة ولا يجوز أن تكون أنت على خليفة ترضاه ويكون ولدك على ما يضاها وقد بلغنا أنه قال شعرا وهو كذا وكذا فياليت شعرى على أى مقام ذل أقام وهو ناظر في نقابة الأشراف والحج وهما من أشرف الأعمال ولو كان بمصر لكان كبعض الرعايا . وأطال الخليفة القول فحلف أبو أحمد أنه ما علم بذلك وأحضر ولده وقال له في المعنى فأنكر الشعر فقال له اكتب خطك إلى الخليفة بالاعتذار واذكر فيه أن نسب المصرى مدخول وانه مدع في نسبه فقال لا أفعل، فقال أبوه تكذبني في قولى،؟ فقال ما أ كذبك ولكنى أخاف من الديلم وأخاف من المصرى من الدعاة في البلاد، فقال أبوه أتخاف ممن هو بعيد عنك وتراقبه وتسخط من هو قريب وأنت بمرآى منه ومسمع وهو قادر عليك وعلى أهل بيتك، وتردد القول بينهما ولم يكتب الرضى خطه، فجرد عليه أبوه وغضب وحلف أنه لا يقيم معه في بلد، فأل الأمر إلى أن حلف الرضى أنه ما قال هذا الشعر واندرجت القصة على هذا .

ففى امتناع الرضى من الاعتذار ومن أن يكتب طعنا فى نسبهم مع الخوف دليل قوى على صحة نسبهم .

(قال ابن الأثير) :

وسألت أنا جماعة من أعيان العلويين فى نسبه فلم يرتابوا فى صحته .
ونعود إلى ذلك المحضر الذى كتب فى ربيع الآخر سنة ٤٠٢ هـ والذى

أشير فيه إلى الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي وصفه ابن خلدون بأنه كان محتمل الشعور وقال مؤيدا وصفه .

« إن حاله كان مضطربا في الجور والعدل والإخافة والأمن والنسك والبدعة، وأما ما يرمى به من الكفر وصدور السجلات بإسقاط الصلوات فغير صحيح ولا يقوله ذو عقل ولو صدر من الحاكم بعض ذلك لقتل لوقته. وأما مذهبه في الزايفة، فمعروف ولقد كان مضطربا فيه، ومع ذلك فكان يأذن لأهل السنة من المصريين في صلاة التراويح ثم ينهي عنها .

واستفاض ابن خلدون في بيان الأحداث التي نسبت ظلما للحاكم ونقضها. وسواء أصح كل ما نسب للحاكم أو بعضه فإن المحققين من العلماء قالوا باختلال شعوره فكيف يحاسب من كان هذا حاله ، ولماذا نخلط بين أعمال الرجل وبين نسبه .

وما كان الخليفة العباسي القادر الذي أثار تلك الضجة حول نسب الفاطميين له شيء من سماعة الخلافة وسلطانها أو شبه نفوذ في الدولة فقد كان خلفاء بني العباس لذلك العهد لا يملكون من أمر الدولة قليلا ولا كثيرا وليس أدل على ذلك من حال الخليفة المطيع لله الذي عاصر المعز، ذلك أن الروم طغوا على بلاد المشرق عام ٣٥٥ هـ بعد موت سيف الدولة وأوغلوا في شمال العراق وكان بجختيار الديلمي صاحب بغداد والعراق قد طالب الخليفة المطيع بمال يستعين به على رد عادية الروم عن أرض العراق فقال له المطيع :

(إن الغزاة والنفقة عليها وعلى غيرها من مصالح المسلمين تلزمني إذا كانت الدنيا في يدي تجبي إلى الأموال، وأما إذا كانت حالي هذه فلا يلزمني شيء من ذلك، وإنما يلزم من البلاد في يده وليس لي إلا الخطبة وإن شئت أن أعزل فعلت) .

فكان قوله آخر العهد لخلفاء العباسيين بالملك أو السلطة الزمنية ، وما كان القادر الذي جاء بعد المطيع بخمسين سنة خيراً منه ولا نال من السلطان والجاه إلا دون ما ناله سلفه المطيع .

على أن ملوك الديلم المتحسكين في بغداد قد اعترفوا بصحة نسب المعز في وثيقة تاريخية، فإن عضد الدولة الذي كان يحكم بغداد معاصراً للمعز وولده العزيز بالله والذي زوج ابنته للخليفة الطائع لله العباسي قد أقر بنسب العزيز بالله ولد المعز ، وقد ذكر ذلك صاحب تاريخ (النجوم الزاهرة) فقال في لغة الغيظ ألحنق :

« إن الخليفة العزيز بالله بن المعز لدين الله كتب إلى عضد الدولة بن السلطان ركن الدولة بن بويه يقول بعد الديباجة :

ان رسولك وصل إلى حضرة أمير المؤمنين فأدى ما تحمله من إخلاصك في ولاء أمير المؤمنين ومودتك ومعرفتك نحو إمامته ومحبتك لآبائه الطاهرين الهادين المهديين فسر أمير المؤمنين بما سمعه عنك »

فكتب إليه عضد الدولة كتابا يعترف فيه بفضل أهل البيت ويقر
للعزيز أنه من تلك النبعة الطاهرة

ولكن صاحب النجوم الزاهرة كان من طبقة المؤرخين الناقمين على
الفاطميين المنكرين نسبهم ، ففسر كتاب عضد الدولة تفسيراً ينطوي على
التخبط والجهل فقال : إن عضد الدولة متشيع ، وهل التشيع الاحب على
وآل البيت؟ وهل من التشيع السكوت على نسب مدسوس على العلويين ، فلو
كان العزيز بالله بعيداً عن النسب الشريف لبادر عضد الدولة باعلان ذلك
صوناً للنسب الشريف من لوثة الغير

لقد دلت الأحداث التاريخية المتكررة أن القدح في الأنساب العلوية
كان سلاح بني العباس من قديم الزمان ، فهذا الرشيد العباسي كان يتعقب
إدريس بن حسن الذي فر من يده الى المغرب فأحدث بين البربر دولة عاشت
أجلاً طويلاً فلما يئس من القبض عليه أوعز الى ابراهيم بن الأغلب عامله على
المغرب أن يقدح في نسبة إدريس الى أبيه ونشر ذلك بين القبائل فلم يغن شيئاً
فعمد الرشيد الى رجل من شيعته فدسه الى إدريس فسّمه ذلك الرجل في
عطور قدمها إليه

وكان عبید الله المهدي أول الأئمة الفاطميين ينزل ناحية سلمية من أعمال
حمص الشام مستخفياً خوفاً من بطش الخليفة المكتفي لا يجسر أحد من
شيعته أن يجهر بامامته ، فلو كان عبید الله بعيداً عن النسب الشريف فأى شيء

كان يخافه وأية حماية لحقت شيعة العلويين حتى يظنون بحمايتهم وسترهم رجلا ليس من أهل البيت

لقد خرج عبيد الله المهدي من الشرق سرّاً إلى مقر إمامته بالمغرب ، فطارده الخليفة المكتفي بالله العباسي وأغرى به عامله على مصر فقائه المهدي وتواترت كتب الخليفة بأوصاف المهدي ونعوته على ولاية برقة وطرابلس وإفريقية والمغرب فقات الجميع فلماذا تقوم قيامة الخليفة فيثير الدنيا والأرصاد والمعائر حول المهدي لو لم يكن إماماً علوياً صحيح النسب كالسابقين من أسلافه أهل البيت

لقد كان القرامطة شيعة للفاطميين يدعون على منابهم لأمتهم ولسكنهم انتهكوا أكبر حرمة الإسلام عام ٣١٧ هـ فاقتلعوا الحجر الأسود من مكانه بالكعبة وحملوه الى بلادهم ولبث في حوزتهم اثنتين وعشرين سنة فكان أكبر سبة لحقت بالبيت الحرام تحت سمع العالم الإسلامي وبصره والخليفة العباسي المقتدر عاجز عن رده ، وقد بذل أمراء الترك ببغداد للقرامطة خمسين ألف دينار على أن يردوا الحجر الى مقره فلم يفلحوا

وكان الإمام الفاطمي القائم يومئذ بالمغرب فساء ذلك العمل وتبرأ من القرامطة ومن سوء فعلتهم وكتب الى كبيرهم كتاباً نثبته للدلالة على مبلغ تورع ذلك الإمام وغيرته على مشاعر الإسلام

« والعجب من كتبك إلينا ممتناً علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من

حرم الله وجيرانه بالأما كن التي لم تزل الجاهلية تحرم إراقة الدماء فيها وإهانة أهلها ثم تعدت ذلك وقلعت الحجر الذي هو يمين الله في الأرض يصفح بها عياده وحملته الى أرضك ورجوت أن نشكرك فلعنك الله ثم لعنك ، والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده »

فغضب القرامطة على الفاطميين وأحرفوا عن طاعتهم

ولقد كان هذا العمل الشائن حقيقاً بشورة الخواطر على الفاطميين لو كان لهم ضلع أو هوى فيه ، فإذا كانوا حقاً بعيدين عن النسب العلوي لانتبهوا بنوالعباس فرصة سانحة وتناولوا نسبهم بالقدح ولكن سكوتهم عن النيل من أنسابهم في أخرج المواقف التي تمس صميم الإسلام دليل على أن دعوى النسب خلقت خلقاً في أول القرن الخامس حين بلغت الأحقاد والأضغان أقصى مداها .

ولما ذا نأخذ بقول بني العباس في صدد نسب الفاطميين وهم خصوم ، أليس تصرف العلويين أنفسهم أنصع في الدلالة على صحة النسب لقد كان للأدارة دولة بالمغرب الأقصى وكانت حاضرتهم مدينة فاس ، فلما ظهر المهدي الفاطمي بأفريقية وفتحت جيوشه مدينة فاس كان بها يحيى ابن إدريس الذي نعته ابن خلدون بأنه كان أكثر الأدارة فضلاً وأعلام قدرا وأغزرم علماً وشجاعة

فاستجاب يحيى لدعوة المهدي وخضع لإمامته وبايعه ، ولو كان في نسب
المهدي لوثة أو مغز لنفر من دعوته ولشأن عليه بين البربر حرباً من الدعاية
وقد قام الدليل على صحة نسب المهدي نفسه من الداعي لإمامته بالمغرب
وهو أبو عبد الله الشيعي الذي جمع الناس حوله وفتح له إفريقية وأخضع له
قبائل البربر ولكنه أفسد عمله وقضى على حسن صنيعه حين سلب السلطة
وضيق على المهدي فحرض المهدي عليه من يقاتله ، فلو كان المهدي بعيداً عن
نسب العلويين لأظهر أبو عبد الله ذلك لشيوخ قبائل البربر قبل أن يقتلوه
انتقاماً من المهدي

ولقد نادى أهل اليمن وأمراؤهم من سلالة الحسن بن زيد العلوي ناشري
المذهب الزيدي باليمن وبايعوا الخلفاء الفاطميين وخطبوا لهم على منابرهم كما
خطب الحسن بن جعفر الحسني للمعز بمكة وكما خطب له الأمراء من بني الحسين
على منبر المدينة

أولئك السادة العلويون هم أولى الناس بالذب عن نسب رسول الله
صلى الله عليه وسلم وما كانوا ليدخلوا على نسبه الشريف دعياً من الجوس
أو اليهود .

وما كان عرض الدنيا ليذهب بالأحساب الكريمة أو يعدل في نظر
الأشراف العلويين قطرة صغيرة من الجاه النبوي الذي يتوجون به هامهم

ولقد كان عبد الرحمن الناصر الأموي - وهو إلى جانب ملكه بالأندلس عالما بالأنساب - من ألد خصوم الفاطميين بالمغرب كل أيامه فأذاقهم من حروبه وتأليب القبائل البربرية صنوفاً من الأهوال ومع ذلك ما فكر في طعن أنسابهم بمثل مقالة بنى عمهم العباسيين .

ولقد كان كافور الأختيدي عاملاً على مصر أيام المعز لدين الله فلما انتشرت دعوة الفاطميين وقدم عليه دعاة المعز أكرمهم واستجاب للدعوة، فلو كان المعز معتل النسب ما خضع له عظيم مثل كافور . وقد خطب أبو المعالي بن سيف الدولة للمعز على منابر حلب وحمص سنة ٣٥٩ . وقد عثرنا في ابن خلكان على خرافة ساقها بين الأخبار المدسوسة على المعز فأثبتها في تاريخه بغير أن يكلف نفسه تمحيصها . ولكن الرجل كان جماعاً لتراجم بعض المشهورين من الأعلام يرصدها على علاتها ، وقد جاء فيه في ترجمة عبد الله بن الحسين بن طباطبا العلوي ما يأتي :

وجاء المعز بعد فتح مصر من إفريقية وكان عبد الله بن طباطبا يطعن في نسبه ، فلما قرب من البلد وخرج الناس للقائه اجتمع به جماعة من الأشراف فقال له من بينهم ابن طباطبا المذكور إلى من ينتسب مولانا فقال له المعز: سنعتقد مجلساً ونجمعكم ونسرد عليكم نسبنا . فلما استقر المعز بالقصر جمع الناس في مجلس عام وجلس لهم وقال : هل بقي من رؤسائكم أحد فقالوا لم يبق معتبر فنسل

عند ذلك نصف سيفه وقال: هذا نسي، ونثر عليهم ذهباً كثيراً وقال: هذا حسي فقالوا جميعاً سمعنا وأطعنا.

والمضحك في رواية ابن خلكان قوله ان عبد الله صاحب هذه القصة توفي بمصر في عام ٣٤٨ هـ مع أن المعز دخل القاهرة عام ٣٦٢ هـ أي بعد أربعة عشر عاماً من وفاة عبد الله صاحب القصة . وأحسن ابن خلكان بالحرج والحيرة فزعم أنه نقل هذه القصة عن شيخه زكي الدين المنذرى وأنه راجعه في ذلك التناقض فقال له لعل صاحب القصة مع المعز كان ولد عبد الله وليس بعبد الله نفسه .

على أن القصة قد جمعت بين السخف والجهل بالتقاليد ومجالس الخلفاء، فقد كان أول مجلس للمعز باستقبال المصريين حافلاً بتقاليد الدولة وعظمتها يشرف عليه قائده ووزيره الأكبر جوهر الذي كان يتولى تقديم الناس إليه على أقدارهم ومراتبهم وما كان الأمر فوضى حتى كان يتقدم الناس جميعاً عبد الله بن طباطبا . ولا كان المعز مثلاً يداعب الناس بسيفه مرة وبذهبه مرة أخرى .

ولقد اقتبسنا من ابن زولاق جانباً من حفلة صلاة العيد التي حضرها المعز لترى منها نظام جلوس الناس على أقدارهم قال :

إن المعز ركب يوم الفطر لصلاة العيد إلى مصلى القاهرة التي بناها القائد جوهر وكان محمد بن أحمد بن الأدرع الحسني قد بكر وجلس في المصلى تحت

القبّة في موضع فجاء الخدم وأقاموه وأعدوا موضعه أبا جعفر مسلما وأعدوه هو
دونه ، وكان أبو جعفر خلف المعز عن يمينه وهو يصلى .

فاذا كان عبد الله بن طباطبا قد عرف بين الناس بالطعن في نسب المعز
أ كان يرضى عنه جوهر الذى انفرد بحكم مصر أربع سنوات كاملة قبل حضور
المعز؟ أم كان يدعه حرا طليقا يقال من نسب المعز كما يشتهى ثم يلقاه عند
حضوره بالمثالب؟ .

مَهْدُ الْأَسِنَّةِ

لكل عظيم نابه الذكر من الدلائل والأعلام وخوارق الأحداث قبيل مولده ما يراها الناس ويمسونها ويتحدثون بوقعها ثم يؤقتون بها أزمانهم فلا يخلو منها جيل ولا زمن ما بقيت السموات والأرض وما دامت آيات النبوغ تنتقل من أصلاب البشرية إلى أرحامها .

ولقد كان ميلاد المعز حدثاً بالغ الوقع ، ومحنة أليمة الوجع ، وعبثاً ثقیل التكاليف على جده القائم ثم أبيه المنصور ثم عليه هو كل أيام طفولته وصباه إلى يوم حمل على رأسه تاج الفاطميين .

فقد ولد بمدينة المهديّة في ١١ رمضان سنة ٣١٨ فدعى معداً .

والمهديّة أول حاضرة بناها جد أبيه عميد الله المهدي لتكون حصناً يصون القواطم من جفوة البربر وطغيانهم ، وكانت من قبيل جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصل بزند لم يكن أحسن ولا أحصن من موضعها ، فأحكم أسوارها واتخذ لها أبواباً من الحديد ونقر صخورها فكانت أطيب مقرلاً سطولاً

ثم قال بعد ذلك «اليوم أمنت على الفاطميات من عدوان المغرب» وله معاذيره
فما كانت له قدم راسخة ولا ريح رخاء .

وكان إسماعيل أبو المعز يوم ولد المعز غلاما في الخامسة عشرة .

فلما مات المهدي عام ٣٢٢ هـ كان المعز في الرابعة وأبوه في التاسعة عشرة
فتى نضر العود، فشب الاثنان في أحضان القائم الفاطمي وسحائب الحنة تدنو
من الأفق رويدا .

فقد كان على رمية السهم منهم داهية الأندلس وصقر بني أمية عبدالرحمن
الناصر يقفوا آثارهم ويرصد حركاتهم من صرحه العالي بفغرناطة وحوله ملوك
البربر وسائر أمراء المغرب حتى الذين بايعوا الفاطميين ووالوهم إلا قبيلة كتامة
فانها ظلت على حبههم وفيه .

لقد كانوا حافين بعرشه مقرين بامامته مثقلين برفده وجوائزه يقاسموناه
بغض الفواطم ويعاهدونه على حربهم وانزاع جذورهم من مغربهم .

وكان الناصر سيد أهل زمانه عزا وسلطانا وحصافة وسخاء ونظرا ثاقبا
فجهز ملوك البربر بالمسال والعتاد وميز منهم شيخ الصحراء وأكبر خوارج
المغرب أبا يزيد وأيده ابن خزر الزناتي طاغية المغرب الذي حارب الفاطميين
أربعين عاما كاملة دون هودة ولا رفق حتى بلغ المائة من عمره ومات وسيفه
قائم بيده ولسانه رطب بالوقية في أهل البيت وقلبه عامر ببعضهم .

لقد رأى المعز بعينه رايات بنى أمية خفاقة بأيدي الخارجي أبي يزيد
والثائر البربري ابن خزر وأمير المغرب الأقصى موسى بن أبي العافية .
وقد تضافروا على جده القائم يقاتلونه كل أيام خلافته وكانت اثنتي عشرة
سنة حتى ضاع من أيديهم سائر المغرب ثم سقطت مدن إفريقية كأوراق الشجر
واحدة بعد أخرى .

وكان المعز وهو في الثانية عشرة يمشي في درعه وسلاحه هو وأبوه وسائر
أهل بيته وعلى رأسهم جده القائم يدفعون عن ملكهم ويخفرون الخنادق
حول المهديّة وقد حصرهم العدو خلف الأسوار فكان يوماً عصيباً كيوم
الأحزاب الذين حصروا المدينة من كل وجه حتى بلغت القلوب الحناجر ومات
القائم تحت الحصار وكان كأيّه المهدي صادق الفراسة ملهم الخذر ، فجمع أهل
بيته حول سريره وأشار من بينهم إلى حافده المعز وكان يؤثره على سائر أولاده
وحفدته فقال : لن يطيب لكم عيش بالمغرب وسيفتح لكم أرض الكنانة
رجل من أعقابكم ولعله ابني معد فإن كان الذي أرجوه من فيض الله عليك
فاحمل معك جثماني واشلاء آبائك الطاهرين .

وتولاها المنصور بعد أبيه والعدو أخذ بخنافة وأهل المهديّة يأكلون الجيف
فكتم موت أبيه وتجافى عن ثوب الخلافة ورسومها وقلائدها واستبقى شعار أبيه
على المنابر والتقود والبنود حتى يحكم الله .

وسلخ المعز من أيامه سبع عشرة سنة علم الله أنه طواها تحت ظلال

السيوف وبين الأسننة حتى صقلته المحن وأرهفته الوقائع فأصبح بسليقته حازماً
مصابراً كما كان بفطرته شجاعاً، وعلمته غرائز أهل المغرب ان البربر داء وان
السيف لهم دواء ما فارقت تلك الخلة حتى أشفى على هجرة المغرب إلى مصر
فكان فيما وصى به خليفته (إياك أن ترفع السيف عن البربر) .

واستمال المنصور قبائل صنهاجة وسيدها زيري بن مناد فجاء لنصرته .
وخذل عنه شيخ الأباضية ابن خزر فكف عن عناده مهادناً ثم قاتل
الثائرين أحسن القتال فنفس عن الفاطميين وكانت يداً كريمة ما نسيها المنصور
ولا ولده المعز وصار زيري بن مناد من أركان الدولة .

وخرج المنصور بنفسه يقاتل الخوارج كأحسن أبطال الحروب بأساً
وشجاعة ولم يغمد السيف حتى حملت إليه رأس أبي يزيد .
وما نسى المنصور نصيب ولده المعز من العلم والتتقيف فأحاطه بكبار الأئمة
والحفاظ يدرسون معه في العراء وهو في درعه ولأمة حربه .

واعتاد ذلك الأسلوب من الدراسة فما رئى في مجلس أو عاير طريق
أو قادماً إلى ديوان إلا كان بيده كتاب حتى خرج إماماً قميها وعلماً من أعلام
الدين والأدب خطيباً بليغ الأسلوب كآبائه في حسن البيان والاجادة .
ومات المنصور قبل الأربعين قرير العين طيب النفس بخليفته المعز وكان
المعز لا يرى إلا كان بيده كتاب .

حكى جوهر قائده الأكبر أنه لما فتح مصر جمع من الأسرى عدداً كبيراً

فلما جاء المعز إلى مصر أعلمه بهم فقال أعرضهم على واذكر في كل واحد حاله ففعلت وكان في يده كتاب مجلد يقرأ فيه فجعلت آخذ الرجل من أيدي جنود الصقالية وأقدمه إليه وأقول: هذا فلان ومن حاله ما هو كيت فيرفع رأسه عن الكتاب وينظر إليه ويقول يجوز، ثم يعود إلى قراءة ما في الكتاب حتى أحضرت له الجماعة وكانوا ثلاث مئة أسير .

وكان على صلابته وبأسه سهل الجناح لين الجانب صفوحاً عن الأجرام حتى كأنه من كثرة العفو لا يعرف من الناس مجرماً يغضى عن البربر ويتجاوز عن جباههم كلما لجأوا إلى صفحه، وما كان عفوه ضعفاً ولا استخذاً ولكنها سماحة الكريم، وكان أحسن خلاله بذله ونداه فقد كان يرى السرور على وجهه وهو يعطى باليمين وباليسار .

وكان يحضر بنفسه سماط العيد بقصره بالقاهرة فيدعو الناس جميعاً فيأكلون وينشطهم إلى الطعام ويعتب على من يتأخر منهم . وكان كثير الخشوع في صلاته وتعبده .

وصفه أبو جعفر مسلم الحسيني الذي حضر صلاة العيد معه بمصلاة القاهرة وكان خلفه في الصلاة عن اليمين فقال :

« صلى المعز بالناس صلاة العيد تامة طويلة فقرأ في الأولى بأم الكتاب وهل أتاك حديث الغاشية ثم كبر بعد القراءة وركع فأطال وسجد فأطال

أنا سبحت خلفه في كل ركعة وفي كل سجدة نيماً وثلاثين تسبيحة، وكان القاضي النعمان بن محمد يبلغ عنه التكبير .

وقرأ في الركعة الثانية بأم الكتاب وسورة الضحى ثم كبر أيضاً بعد القراءة وهي صلاة جده علي بن أبي طالب عليه السلام وأطال أيضاً في الثانية الركوع والسجود أنا سبحت خلفه نيماً وثلاثين تسبيحة في كل ركعة وفي كل سجدة وجهر بيسم الله الرحمن الرحيم في كل سورة »

وعلق المؤرخ بن زولاق على مذهب المعز في العبادة فقال :

إن بعض أهل العلم ينكرون عليه القراءة قبل التكبير وذلك لقلّة علمهم وقصورهم ثم ذكر سنداً مطولاً ينتهي الى علي بن أبي طالب رضى الله عنه أنه كان يقرأ في صلاة العيد قبل التكبير

ودرس المعز منذ حداثته كثيراً من اللغات كالسودانية والبربرية والرومية والصقلية وحذقها قراءة وكتابة فكان يخاطب رسل الملوك من الروم والايطاليين ويطالع بنفسه رسائلهم .

وكان أكبر همه أن يعالج بنفسه شؤون دولته ويمحصها ويستعين بعد ذلك بخبرة أهل الشورى من رجال دولته

وعرف عنه أنه قرض الشعر صغيراً ، وقد عثرنا له على مقطوعات لطاف

ولعله كان يسمو بنفسه في عالم الأدب لو لم تستوعبه أعباء الملك

فمنها قوله :

لله ما صنعت بنا تلك المهاجر في المعاجر
أَمْضَى وَأَقْضَى فِي النَفْوِ س من الخناجر في الخناجر
وَلَقَدْ لَقِيتَ بَيْنَكُمْ تعب المهاجر في الهواجر

ومنها :

أطلع الحسن في جبينك شمساً فوق ورد في وجنتيك أظلاً
وكان الجمال خاف على الور د جفاناً فد بالشعر ظلاً
وأصبح المعز سيداً على بلاد المغرب بأقسامه الثلاثة ، فالمغرب الأدنى هو
برقة وطرابلس والمغرب الأوسط به افريقية (تونس) ، ثم بقية ونسميها الآن
(الجزائر) والمغرب الأقصى

وكانت غالب قبائل البربر الشهيرة تنزل المغرب الأوسط بولاياته الأربعة
وهي بجاية الى أقصى الشرق وفيها وطن قبيلة كتامة أكبر نصير للفاطميين .
ثم ولاية المسيلة وبها وادي الزاب وفيها موطن قبائل زناتة التابعين لمذهب
الاباضية وكانوا خصوماً ألداء للفاطميين أذاقوهم من عذاب الحروب ألواناً ،
والثالثة ولاية تاهرت ، ومدينة تاهرت كانت حاضرة الاباضية منذ القدم وحوها
قبائل مغراوة ، وكثير من بطون زناتة وسيدهم محمد بن خزر الذي حارب
الفاطميين نيفاً وأربعين سنة ومات وقد بلغ المائة

والرابعة ولاية أشير وفيها قبائل صنهاجة وأولئك ناصروا الفاطميين أيام
ضيقهم وأقاموا على ولائهم

ومناطق المغرب الساحلية غاية في الاعتدال صيفاً وشتاء . أما الجنوب
فلا يطاق حره ولا برده

ويمتد بالمغرب الأوسط سلسلتان من الجبال متوازيتان تلتقيان في حدود
افريقية (تونس) وبين الجبال سهول خصبة تجري فيها الأنهار

وللجبال ببلاد المغرب الأوسط خطرها العظيم لأنها تشرف بسفوحها على
المدن الكبرى ، فجبال الأطلس الشمالية تشرف من أقصى الغرب على مدينة
تلمسان عاصمة المغرب الأوسط وفي سفوحها من الوسط مدينة تاهرت عش
الأباضية ومقر قبائل زناتة ومغراوة كما أن سفوحها الشرقية مناخ قبيلة كتامة
أما جبال الأطلس الصحراوى فأكثرها ارتفاعاً جبل أوراس وهو أعلى
جبل بالمغرب بأسره تكثفه غابات كثيفة فتضاعف من خطره ولذلك كان
منبع الثورات والفتن وعلة شقاء الخلفاء الفاطميين جميعاً وكان مفتاح ذلك
الجبل من الشرق مدينة باغاية

وكانت بلاد المغرب تدرّ الخيرات قديماً أيام الرومان حتى سموها (اهرام
روما) ولكن الحروب والفتن المتوالية أنهكت زروعها فأصبحت بحيث لا تدرّ
على الفاتحين ما يكفيهم حتى كان العباسيون يمدون ولائها بمائة ألف دينار
من خراج مصر كل عام

والبربرى من خلقه الفوضى وكراهية السلطة كيفما كان عدلها فهم
يحاربون المحتل ثم يحارب بعضهم بعضاً
ولما دخل الفاطميون المغرب في أول القرن الرابع الهجرى اصطدموا
بأربعة من أئمة المسلمين جمعوا في صعيد واحد
فكان في إفريقية دولة بنى الأغلب يحكمونها مستقلين ولكنهم يدعون
لإمامهم وهو الخليفة العباسى .

وكان أول وال للرشيد على المغرب ابراهيم بن الأغلب عام ١٨٤ هـ
وكان الرشيد حريصاً على استبقاء المغرب متصلاً بدولته، وتبين من عبر
الماضى أن الثائرين من البربر قد أنهمكوا قوى الولاة فاتخذ ابن الأغلب سداً
قائماً في وجوههم كما اتخذ من صداقة شرلمان ملك فرنسا سداً في وجوه الأمويين
فكان ابن الأغلب تابعاً لبنى العباس بالاسم ولكنه استقل بالبلاد لنفسه
ولنسله من بعده

ولبت بنوه سادة لإفريقية حتى عام ٢٩٦ هـ حين طردهم منها دعاة المهدي
الفاطمى وكانت لهم المدن العامرة بالتجارة والخيرات ومعاهد العلم ، وضعف
شأنهم بعد أن استسلم أحدائهم للترف والنعيم
وكانت قبائل زناتة ومغراوة ينادون بامام من الاباضية في حاضرتهم تاهرت
والاباضية خوارج خرجوا على على بن أبى طالب ثم هاجروا الى المغرب

أيام هشام بن عبد الملك الأموي وأقاموا به إمارات متعددة وكانت ملتقى
دعاتهم مدينة تاهرت

وانتشر مذهبهم بين قبائل زناتة ومغراوة وفي جبال نفوسة التي بطرابلس
وكان بالمغرب دعاة لخليفة الأمويين الناصر وكانت وهران مقر دعائهم وكان
الأدارسة يدعون لإمام منهم بالمغرب الأقصى

والأدارسة كالفاطميين شيعة ولكنهم زيدية أتباع جد هم زيد بن علي
ابن الحسين، وكانت حكومتهم بالمغرب الأقصى ومقر أئمتهم مدينة فاس التي
شادوها وكانوا أهل عدل ورفق برعييتهم

ولهم عامل على المغرب الأوسط يقيم بمدينة تلمسان

وكان أبناء عمهم من الأدارسة متفرقين بسواحل المغرب

واستطاع المهدي الفاطمي بدهائه وحسن سياسته أن يشق لنفسه طريقاً
بين دعاة الأئمة الأربعة وخصته العناية بقبيلة كتامة فكانت له خير عون على
بقية القبائل ما خانت له عهداً ولا خرجت عن طاعته ولا تخلفت عن نصره
وكان منهم سواد جيشه وعماده، وقد بذلوا أرواحهم سخية فداء له ولأهل بيته
ولما أراد المعز أن يظهر المغرب من بني أمية ودعاتهم أسرع إليه
كتامة وسيوفها بأيديها فأخضعوا المغرب وألقوا بالأمويين في البحر ثم فتحوا
بسيوفهم مصر والشام .

ولما هاجر إلى مصر هاجر بقيتهم معه وتفرقوا في بلاد الشرق في سبيل

ملكه واقترضوا بانقراضه وأكثتهم الأقطار والوقائع وضرب بهم أحسن
الأمثال في الوفاء لأهل البيت الفاطميين .

وتشبهه كتمامة في تشيعها قبيلة همدان التي أحباها على رضى الله عنه فقال
فيها كلمته المأثورة .

ولو كنت بوأبا على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام
وتغلب المهدي على أشد خصومه بأسا وهو ابن الأغلِب وطرده من المغرب
وقطع الدعوة العباسية ثم فتح مدينة تاهرت ودحر قبائل زناته ثم أخضع امام
الأُدَارة بالمغرب الأقصى .

وكان يوم الأمويين عصيبا فصلناه في صدر هذا الباب .

شاعر المعز

كانت سنة ٣٤٧ هـ مبدأ للتحول والانتقال في موقف الفاطميين من بنى أمية خطته يمين المعز باقدامه وحزمه وشجاعته وانتزع النصر من يد الناصر حتى لقد جمع بيده سائر خيوطه وفي ذلك العام أجاز البحر إلى المعز شاعره العظيم محمد بن هاني^١ وهجر وطنه الأندلس .

وأبو القاسم محمد بن هاني^٢ أندلسي المولد ولد بضاحية سكون إحدى قرى مدينة اشبيلية عام ٣٢٠ هـ فهو قريب السن من امامه وقبلة مدائح المعز، وقال أكثر المؤرخين إنه من ولد المهلب بن أبي صفرة الأردني .

وكان أبوه هاني^٣ من أهل قرية من قرى المهديّة عاصمة الفاطميين بأفريقية وكان الأب شاعرا فانتقل إلى الأندلس حيث ولد له ومحمدونشأ بأشبيلية وجلس طويلا إلى علماء الأدب وحفاظ أشعار العرب وأيامهم وتردد على دار العلم بقرطبة ومنها روى شغف اطلاعه ونهم الراغب في المزيد من العلم واتصل لأول عهده بصاحب اشبيلية فنال منه الحظوة التي عزت على سواه من شعراء

للمدينة غير أن ابن هاني طبع نزاعا إلى التشيع فقال بصره إلى الجنوب حيث
مفر الأئمة الذين أخلص لهم الحب وملك التشيع عليه مزاجه وملسكة الأدب
من نفسه فنطقت جوارحه بجههم ونم أدبه بتمجيدهم .

وما كان ابن هاني ليتشيع على أيدي أساتذته فحول الأدب بالأندلس
لأن القوم كانوا يفتنون الشيعة وأتمتها وقد أثاروا عليهم حربا لا رحمة فيها
ولا هوادة .

غير أن أباه هانئا كان مغربي المولد من أهل مدينة المهديّة فما يدرينا
لعله كان يتشيع ثم بدت له الهجرة إلى الأندلس فرارا من حروب البربر التي
أوقد نارها الناصر على آباء المعز فسرى منه التشيع إلى ولده محمد، على أن ابن
هاني كان كما وصفه طبقات البحاث وحفاظ الأدب (أشعر شعراء المغرب على
الاطلاق من المتقدمين والمتأخرين) حتى دعى بحق (متنبى المغرب) وما سما
إلى تلك المنزلة من الأدب إلا بجدّة ذكائه وخصب خياله واكتناز محاسن اللغة
فلماذا لا يكون ميله إلى التشيع اختيارا وافق ميوله ومزاجه وهو العبقري الفذ
في وضع مختاراته في المعز حتى قال فيه بعض منصفيه :

(لقد تجاوز بسمو خياله ورقة ما نحت من جمال لغته وأدبه كثيرا من وشى
المتنبى لولا أنه غلا في التشيع) .

فأين خصوم المعز الذين طعنوا نسبه ليروا مظهر من أكرم مظاهر الخلق
مثلا في ابن هاني الناشئ في مهد بني أمية يتقلب في نعمتهم ويتناول رزقه

من أكرمهم ويستحق العلم من حلقاتهم ثم يحظى بعد نضوجه عند أمرائهم
بأدبه ورقيق شعره ماذا كان يضيره لو انتجع إلى قرطبة وحل بديوان الناصر
نصير الأدب وملتي العلماء الأعلام فغناه من أغاريدِه ونسج حوله من عسجده
وشى مدائحِه أما كان ذلك أبقى لأثره وأنبه لقدره وأشهى لبني قومه
أهل الأندلس؟

ولكنه الحب الصادق والتشيع الطاهر هو الذي تغلغل إلى قلبه وسما
بنفسه كما فعل بقلب الكميت شاعر أهل البيت في الصدر الأول وكما فعل
بعمارة اليميني في ماتم تلك الدولة، وما كان عمارة متشيعا كابن هاني بل كان
دنيا بجههم صداحا بمدائحهم حتى لقي ربه مصلوبا فوق أبقاضهم معفرا بدمائهم
يشدو برثائهم شدوا دونه رثاء الأندلس البائد .

وعرف أهل اشبيلية تشيع ابن هاني وسقط إليهم بعض أشعاره فثاروا
عليه وتحفزوا لقتله وعجز صاحب اشبيلية عن حمايته، فقد تناوله الناس بألسنتهم
كما فعلوا بابن هاني فأشار عليه الأمير بالهجرة من المدينة فتجهز للرحلة
إلى إفريقية .

وكان المغرب بأسره أتون من نار يرهج بالحديد، والحروب تتناوله من
أطرافه وكره أهل الأندلس أن يفر ابن هاني بكنزهِ الثمين من معين أدبهم إلى
العدوة الأخرى فأقاموا في طريقه العقبات ولكنه أفلت من أيديهم بشق
الأنفُس وقد أشار إلى هول ما لاقى منهم في بعض شعره حين قال :

ولو علقته من أمية أجبل لَجُبَّ سنام من بني الشعر تملك
ولما التقت أسياها ورماحها شراعا وقد سُدت على المسالك
أجزت عليها عابرا وثركتها كأن المنايا تحت جنبي أرائك
وما تقموا إلا قديم تشيعي فنجى هزبرا شده المتدارك
ولقد أثنى عليه المستشرق الألماني فان كريم وترجم بعض أشعاره إلى
الألمانية وقال إن فيه قوة بيان ورقة في الأسلوب والألفاظ لا يجاريه فيها إلا
القليل من المحسنين ولذلك يدعوها المغاربة متنبى المغرب ، وديوانه أهم ديوان
لدينا لأنه وسيلة للاطلاع على عقائد الخلفاء الفاطميين ومقاصدهم .

وود ابن هاني لو نال بغيته من الدخول على المعز ولكن كان دون ذلك
أهوال لأنه كان قادمًا من عدوة الأندلس وأبواب المعز دونها القواد وملوك
البربر وأشرف الشيعة .

وكان بالمغرب أمير يرجع أباه إلى الأندلس اسمه على بن حمود كان قدم
على عبيد الله المهدي رأس البيت الفاطمي قبل أن تظهر دعوته بأفريقية فلما
حضر إلى المغرب ثم اعتقل بمدينة سجلماسة أقام ابن حمدون إلى جانبه يراعه
حتى خرج من السجن فلما بايعه الناس بالامامة قرب إليه ابن حمدون ثم جاء
القائم الفاطمي ولد المهدي فاختم مدينة المسيلة وجعلها قاعدة لوادي الزاب
وأُنزل بها عليا بن حمدون وألحق ولديه جعفرًا ويحيى ببلاط ولده المنصور
والد المعز .

وجاء المعز فأقام جعفر بن علي أميراً علي وادي الزاب يسكن المسيلة ومعه
أخوه يحيى بن علي وزيراً له، وحكمه في رقاب قبيلة زناته التي تمقته وكان جعفر
سمحاً سخياً كثير العطاء يؤثر العلماء والشعراء فلحق به ابن هاني من أول
دخوله إلى المغرب ومما قال فيه :

ألا أيها الوادي المقدس بالطوى وأهل الندى قلبى إليك مشوق
ويا أيها القصر المنيف قبابه علي الزاب لا يُسدّد إليك طريق
ويا ملك الزاب الرفيع عماده بقيت لجمع الجمد وهي فريق
فأانس لا أنسى الأمير إذا بدا يروع بجرى ملكه ويروق
ولا الجود يجرى من صفيحة وجهه إذا كان من ذلك الجبين شروق
وأثنى علي كرمه فقال :

عذلوه في بذل التلاد وإنما عذلوه أن يدعى الغمام الصيبا
نفس ترق تأدبا وحجى يضى ء تلبها ويد تدوب تسربا
فيزيدها درّ السباح تحرقا ويزيدها بسط البنان ترحبا
ثم أثنى علي شجاعته فقال :

إذا كان هذا العفو من عزماته ففي أى خطب الدهر يستغرق الجهد
إذا كان تدير الخلائق كلها له لعبا فانظر لمن يذخر الجد
فما ظنكم لو كان جرد سيفه إذا كان هذا بعض ما فعل العمد

ولابن هاني من شعره الجزل مختارات قالها في جعفر بن علي لا يتسع لها
كتاب أوردناه للمعز .

وما كاد ابن هاني يضع قدمه بأفريقية حتى انهال عليه خصومه الشعراء
يهجونه بالقدح الموجه فلما بلغه ذلك قال لا أجيب منهم أحدا حتى يهجونني
على التونسي فاني أجيبه، فلما بلغ قوله عليا قال :

أما إني لو كنت الأم الناس ماهجوته بعد أن شرفني على أصحابي وجعلني
من بينهم كفوآله .

وحمل خبره إلى المعز فاستدعاه وقر به واختص به، ونال ابن هاني ما كان
يرجوه من دنياه، فدخل على المعز وقد عقد الديوان للتهنئة بأعظم فتح ناله المعز
على عدوه الناصر، واستمع إليه بين ملوك البربر وأمراء المغرب، وكانت من أجل
ما نطق الشاعر الكبير وقد بلغت مائتي بيت فلنكتف بالقليل من
كثيرها الممتع .

إذا كان من أيامه لك شافع	إلى أمل فاخضم به الدهر واقصم
إذا أنت لم تعدم رضاه الذي به	يفوز بنو الدنيا فلست بمعدم
وأنت يدأت الصفح عن كل مذنب	وأنت سنتت العفو عن كل مجرم
ولا عجب إن كنت خير متوج	فجذك في البطحاء خير معمم
وأشهد أن الدين أنت مناره	وعروته الوثقى التي لم تفصم
تقودهم في الجيش والجيش منسك	وكل حجيج من محل ومحرم

كما سار في الأنصار جذك من منى وقاد الحواريين عيسى بن مريم
ولا عذب الماء القراح لشارب وفي الأرض مروانية غير أيم
ألا إن يوما هاشميا أظلمهم يطير فراش الهام عن كل مجثم
ألا إن وترا فيهم غير ضائع وطلاب وتر منكمو غير نوم
فتمشون في وشى الدروع سوابغا ويمشون في وشى البرود المنمم
با سيف ذاك البغي أول سكتها أصيب على لا بسيف ابن ملحم
وبالتأثر من بدر أريقت دماؤكم وقيد إليكم كل أجرد صليم
إذا ما بناء شاده الله وحده تهدمت الدنيا ولم تهدم
فمن غير ابن هاني ييسط أيام المعز ووقائعه وقد ظلمه المؤرخون وتجاهلوا
دنياه الخالدة، ومن غير المعز يرفع قدر شاعره الذي خلقه الله ليم به مجده ويرفع
مناره فقد تواتر النصر على راياته فدحر الروم في صقلية ونال من أسطولهم أعظم
الفتوح فوقف ابن هاني بين يديه يصف سفن الحرب قتال بلسان من يصف
قذائف الحروب الحديثة :

إذا زفرت غيظا ترامت بمارج كما شب من نار الجحيم وقود
فأنفاسهن الحاميات صواعق وأفواههن الزافات حديد
وكل القصائد مطولات يضيق النطاق عنها .
ويحدثنا ابن هاني عن علو منزلته عند المعز وقصور أنداده من الشعراء
عن اللحاق به فيقول :

فما تكامل من قبلي لمرتقب إذنا ولا لخطيب ما تكامل لي
وتوالت عليه أيادي المعز حتى لقد أمر له بدست قيمته ستة آلاف دينار
فقال له يا أمير المؤمنين ما لي موضع يسع الدست إذا بسط فبني له قصرًا أنفق
على بنائه ستة آلاف دينار وحمل إليه فراشا يشاكل الدست والقصر بثلاثة
آلاف دينار وهذا ما لم ينله شاعر قبله ولا بعده .

لقد كان شهاب الدين المقدسي صاحب كتاب (الروضتين في أخبار
الدولتين) مؤرخًا عصر صلاح الدين الأيوبي فنسج من أدبه وأسلوب
يراعته حول غزواته ووقائعها وأيامه الغر وأخرجها للناس فيأضه النضرة مصقولة
التصوير مفصلة الأحداث .

وقد كان ابن هاني مؤرخ المعز على أسلوب أدبه وفيوض أغار يده يصور
مغانيه والغرر الحبيبة من حكمه وهي التي ضن بها المتورون من الفاطميين من
نقلة الأخبار الذين لا ذمة لهم ولا أمانة فيهم .

فهو سرءاة وقائع ذلك الملك العظيم مع بني أمية ومصور أحداثه ومفاخر
بني هاشم وهو درع يتقى بصدرة مطاعن خصومهم لم يبيق لقائل حرفًا إلا
القمه فأخمه .

وابن هاني بديوانه الزاخر بالحوادث الفياض بالأخبار من الدلائل
الناصعة والحجج الدامغة، على أن دعوى النسب لم تخلق إلا في أول القرن
الخامس ولو نجم بها فرد واحد أيام المعز أو أحد من آبائه لشاعت بين الناس

وكان ابن هانيء أول من دفعها وفند إفكها ، كما تبسط في كل خلاف بين
أمية وهاشم وكما تصدى للشائئين من بني العباس
وقد اقتبسنا الكثير من قصائده العامرة التي ألقاها بين يدي المعز في
سائر فتوحه وألحقناها بالموضع الذي قيلت فيه
ولم ينس المعز حسن بديهته يوم أهدى إليه سيف جده علي بن أبي طالب
ذو الفقار فوصفه وصفاً خالداً حين قال :

سماه جدك ذا الفقار وإنما سماه من عاديث عزرائيل
وكان به لم يُبق وترأ ضائعاً في كربلاء ولا دمماً مطولوا
فشاع بين الناس سيف المعز كما ذاع ذهبه
ولعل ابن هانيء كان في خلقه نزعة المخاطر فيغشى البيوت ويطرق أهلها
ليلاً كما كان يفعل الملك الضليل، وقد ذكر ذلك في إحدى قصائده فقال :

طرقت فتاة الحى إذ نام أهلها
وقد قام ليل العاشقين على قدم
فقال أحقاً كلباً جئت طارقاً
هتكت حجاب المجد عن ظبية الحرم
أنازعها باللحظ سرّاً كأنما

تعلم منها اللحظ ما نسى القلم

وقد أحكم الغيران في سوء ظنه
فما شك في قتلى وإن كان قد حُلم
يطيف بأطناب القباب مُسهداً
فينشق ریح الليث والليث في الأجم
فبادرت سيفي حين بادر سيفه
فتار إلى ماضٍ وثرث إلى خَدم

سيف المعز

لقد كان عبد الرحمن الناصر خليفة الأمويين بالأندلس معاصراً الآباء المعز من لدن جده الأعلى عبيد الله المهدي ، فقد حكم الأندلس خمسين عاماً من أول القرن الرابع إلى منتصفه وامتدت أيامه لبضع سنوات من عصر المعز بالمغرب

وكان الناصر ملكاً جليلاً عظيم القدر أخضع ثوار الأندلس لأول حكمه ثم أخاف الأفرنج بحسن بلائه فيهم حتى مدت إليه ام النصرانية من وراء الدروب يد الإذعان وأوفدوا إليه رسلهم وهداياهم من روما والقسطنطينية وكان آباؤه قانعين بالأندلس وبأسباب التجارة مع سواحل المغرب فأقام طائفة من تجارهم بشاطئ المغرب مدينة وهران عام ٢٩٠ ومنها نفشت دعوة الأموية .

ولكن الناصر لم يقنع بما فتح الله عليه من بلاد الأندلس المجاورة ، بل سمت نفسه إلى المغرب

فلما رأى إديار دولة الأدارسة أنفذ جيشاً فاحتل ثغر سبتة وهي عدوة
المغرب المواجهة لأقرب ثغور الأندلس

وخطب أكبر زعماء المغرب الأقصى وسيد قبائل مكناسة موسى بن
أبي العافية بأن يدعو له ببلاده وما جاورها ووعدته الجزاء الأوفى فاستجاب له
وكان موسى والياً على المغرب الأقصى من قبل الفاطميين فنقض طاعتهم
وخطب للناصر على منابر

فغاربه عبيد الله المهدي وهزمه قائده حميد عام ٣٢١ هـ وانتزع من يده
مدينة فاس وأقام بها دعوة المهدي

ومات المهدي عام ٣٢٢ هـ فثار رجل من شيعة الأمويين يدعى أحمد بن
بكر الجذامي وعدى على حاكم مدينة فاس الفاطمي فقتله وأنفذ رأسه إلى
الناصر بالأندلس واستباح المغرب واسترد الدعوة للأمويين

وجاء القائم الفاطمي بن المهدي إلى الخلافة فأنفذ إلى المغرب جيشاً مع
قائد اسمه ميسور عام ٣٢٣ هـ ففتح مدينة فاس واعتقل أحمد بن بكر وأرسله
إلى سجن المهدي فظل بها إلى أول حكم المعز وهزم القائد ميسور موسى بن
أبي العافية أكبر دعاة الأمويين وأعاناه عليه فلول أمراء الأدارسة الذين
تفرقوا بالمغرب بعد انقراض دولتهم فقاموا بدعوة بني عمهم الفاطميين من جديد
وحكموا المغرب باسمهم ولحق بعضهم بفلول الأدارسة الذين تفرقت لهم إمارات

صغيرة بريف المغرب وحول ثغر سبتة فصاروا يدعون لكل عاهل يحكم ذلك
الثغر من الفاطميين أو الأمويين
وجاء المعز إلى الخلافة أول العام من سنة ٣٤٢ هـ وجيوش الناصر وقواده
تعب من بر الأندلس إلى سبتة يقاتلون البربر ويتألفونهم حتى ملكوا أكثر
بلاد المغرب .

وبايع الناصر قبائل زناتة وخطبوا له على المنابر من حاضرتهم تاهرت إلى
طنجة وفاس فولى عليهم أعظم ملوكهم محمد بن الخير المغراوي وكان يتعصب
للأمويين لأن جده قدم أول أيام الفتح الإسلامي على عثمان بن عفان رضي
الله عنه وأسلم على يديه وبسبب ذلك كانت قبائل زناتة بأسرها أبا واحدا مع
الأمويين كما كانت قبائل صنهاجة المنافسة لها والمتاخمة لحدودها من الشمال أبا
واحدا مع الفاطميين .

فخرج المعز في أول أيامه على رأس جيش كثيف يطوف بلاد إفريقية
والمغرب ليمهد قواعدها ويعزز أسبابها فاقتحم جبل أوراس على القبائل الثائرة
عليه وهي بطون زناتة وهواره وكتاتها تدين بالمذهب الاباضي وتؤثر الناصر
الأموي فتدعوه كما كانت تمتت الشيعة .

وكان لتلك القبائل رئيسان متنافسان لانتقطع من بينهما الفتن والحروب
وهما محمد بن خزر ويعلى بن محمد .

وما غاب عن دهاء المعز ما بين الرجلين من لدد وعداء .

فاستدنى منه يعلى بن محمد وقر به وعقد له الولاية على مدينة تاهرت وسائر بلاد المغرب الأوسط ليكيد منافسه محمد بن خزر فاقتحم يعلى بن محمد بلاد ابن خزر ودوخها ودمر حاضرتة وهران

واختار المعز لاقليم الزاب وهو عش زناته رجلا من أوليائه وهو جعفر بن على الأندلسي وجعل مقره مدينة المسيلة ليشرف على قبائل زناته ويمنع صمام ثورتها من الانفجار .

وكان يتاخم جعفر بن على من الشمال قبائل صنهاجة وملكها زيري ابن مناد وكان هذا ألد خصوم زناته فكان تطويق تلك القبائل الباغية عملا حازما من أعمال المعز .

وأراد المعز أن يسدى لزناته يدا فأطلق من سجن المهديّة أحمد بن بكر الجذامي الذي كان بالسجن من أيام جده وأحسن إليه وولاه على مدينة فاس وكان ابن عمه محمد بن الخير قد فر إلى غرناطة ليكون في ركاب الناصر .

واختار المعز من أوليائه الحازمين خادمه القائد قيصر الصقلي فندبه ليحكم مدينة باغاياه وهي مفتاح جبل أوراس ويبدحها كنها سائر الدروب المشرفة على الجبل فنع تسرب القبائل المتمردة وبجحت سياسة التفريق التي بسطها المعز على المتنافسين من ملوك البربر فان الطاغية محمد بن خزر قدم عليه خاضعا ملابيا دعوته وترامى على أقدامه لينصره على عدوه يعلى بن محمد وأعلنت قبائل هواره خضوعها وولاءها بعد خضوع سيدها ابن خزر .

فحمد المعز ربه الذي أدان له أكبر النافرين من العصاة ولو إلى حين
وجاء دور أوليائه المخلصين فاستقدم في الأول زيري بن مناد سيد قبائل
صنهاجة وأراد أن يجزيه على إخلاصه وحسن بلائه مع جده القائم وعونه
الأكبر على الثائر أبي يزيد فخلع عليه وبسط يده بالعتاء وبشره بالسيادة
على قبائل زناته لأنه يتوقع جنوحهم إلى العصيان كسابق عهدهم .

وعطف المعز آخر الأمر على أكثر أهل المغرب ولاء له ووفاء لآبائه وهم
قبائل كتامة فاختر من أمرائهم ولاية لإقليم برقة وطرابلس وجزيرة صقلية
وإقليم جنوه وسائر قواد الأسطول كما اختار من بين شيوخهم وعلمائهم أركان
مجلس دولته ودعاته .

وشمر عن ساعده بعد ذلك وعقد عزيمته على الثار من عدوه الناصر
الأموي وحز في نفسه أن يرى لتلك العدو كلمته العليا بريف المغرب
وسواحل بحر الروم .

وتجهز ليصارح أمية كما صارعهم أبوه في بدر وفي صفين فبدأ بغزو
الأندلس لينال منه بعض ما فعل بآبائه فأمر الحسين ابن علي عامله على صقلية
أن يخرج بالأسطول فيغزو شواطئ الأندلس وكان ثغر المرية بالشاطيء
الجنوبي الشرقي للأندلس يربط به أسطول الناصر ويقوده أشجع قواد
الأندلس غالب وهو رجل الوقائع والحروب الذي أذهب الإفرنج وبطش بهم
في البر والبحر حتى أنجأوا عن الجانب الغربي من بحر الروم وخلفوه لسلطان

الأمويين والفاطميين واتحتم الحسين بن علي ثغر المرية وعاث في بلاد الأندلس ثم عاد غائما وكان ذلك عام ٥٣٤٤ هـ .

وما كان الناصر لينام عن ثاره فأنفذ غالبا على رأس أسطول فيه مائتا سفينة فحاول أن يغزو ثغور المغرب وإفريقية فلم يبلغ منها غرضا لمناعتها ويقظة حاتمها فكان أول فتح ناله المعز من عدوه الناصر .

ولكن الناصر لا يرضى لنفسه الهزيمة فعاد يغزو المغرب بعد عام واتحتم أسطوله ثغر سوسه بإفريقية وعاث في بلادها واشتفى للهزيمة السابقة ثم أغزى جيوشه ثغر سبتة وسائر بلاد العدو فكتب له أحمد بن بكر أنه مقيم على ولائه وقد خطب له على منابر فاس وأنه نقض عهد الفاطميين وخرج عن طاعة المعز الذي أحسن إليه وأخرجه من السجن .

وذهب إلى غرناطة سائر ملوك البربر وبايعوا الناصر وبينهم يعلى بن محمد الذي ولاء المعز مدينة تاهرت ليكيد به ابن خزر ففرح به الناصر وولاه على طنجة .

وأصبح الناصر متحكما في شواطئ المغرب وحواضره واستجاب له قبائل زناتة وسائر البربر ولم يبق مواليا للمعز إلا كتامة وصنهاجة واستبان المعز حرج الموقف ومكيدة الناصر التي يرمى بها إلى إذلاله كما فعل بأبائه من قبل .

وكان المعز يعتد بأحسن القواد من الصقليين ومن كتامه وكان من

أعظمهم جوهر وقبصر وسعادة وريدان وجعفر بن فلاح فجهز الجيش أحسن
جهاز وعقد الألوية ثم أمر عليهم جوهرًا .

وكانوا عشرين ألف فارس وتحركت لنصرتة صنهاجة بأسرها وعلى
راياتها ملكها زيري بن مناد .

وتحرك الجميع من القيروان عام ٣٤٧ هـ .

ونقل الخبر إلى يعلى بن محمد صاحب طنجة وخليفة الناصر على بلاد
العدوة فحشد قبائل زناته وكان اللقاء على مدينة تاهرت .

وكانت سياسة المعز إذا نشبت الحرب أن يبذل المال ولا يرضى بكثرته
تشجيعا للقبائل على القتال فرود جوهرًا باحمال الذهب ووصاه بنثرها بين القبائل
فضمن له القواد قتل يعلى بن محمد وشددوا عليه فقتلوه وحملت رأسه إلى المعز
وطيف بها القيروان .

وطار جوهر إلى مدينة سجلماسة وهي أقصى مدن المغرب فقاتل عليها
ابن مدرار وجمه أسيرا وكان مع ابن مدرار جيش كثيف من الإباضية
أفناه جوهر .

وعاد الجيش إلى مدينة فاس عام ٣٤٩ هـ فحاصرها وتسم أسوارها ليلا
زيري بن مناد وفتحها الجيش عنوة وأسروا أحمد بن بكر .

وانطلق جوهر في بلاد المغرب يقتل أولياء المؤمنين ويفتح البلاد
والمعقل فخافه البربر وفروا أمام جيوشه وتوارى دعاة المؤمنين .

وقضى جوهر في حربهم ثلاثين شهرا حتى انتهى إلى شاطئ الحيط
فأرى أن يخلد ذلك الفتح العظيم بعمل من أعمال بطولته فجمع له من سمك
المحيط في جرار كبيرة ملئت ماء ثم حمله معه مئات الأميال بين جبال المغرب
وهضابه وسهوله وأوعاره حتى وضعه بين يدي المعز .
ودخل المهديّة ومعه أحمد بن بكر وابن مدرار في الأتقاص على ظهور
الجمال فسجنا بالمهديّة .

وبالغ المعز في إكرام زيري بن مناد وأضاف إلى ملكه مدينة تاهرت
وحكمه في رقاب زناتة بأسرها .

وختمت أيام الناصر الطويلة بهزيمة نكراء من سيف المعز وخروج
سلطانه من المغرب فلم يبق له إلا ثغر سبتة .

وفي عام ٣٥٠ هـ مات الناصر كأعظم ملوك الإسلام جاها وعزا وسلطانا
فما كان من بني أمية من بلغ شأوه أو سما إلى منزلته وقد امتدت أيامه الطويلة
فتشابكت أحداث البلادين وتولدت من عناصرها عبقرية المعز ودهاؤه
وحزمه وشجاعته .

وأراد المعز أن يرفع ذكر قائده جوهر فأمر شاعره الكبير ابن هاني
أن يثني عليه بحضرتة ثناء يبق أثره على الأيام فقال :

ألا هكذا فليهد من قاد عسكريا وأورد عن رأى الإمام وأصدرا
هدية من أعطى النصيحة حقها وكان بما لم يبصر الناس أبصرا

ألا هكذا فلتجلب العيسُ بَدْنَا
يُمَشِين مَشَى الغانيات تهاديا
ألا إنما تهدي إلى خير هاشم
وأهل باب تهدي إليه فإنه
وأسكنها أعلى القباب مقاصرا
وبوأها من أطيب الأرض جنة
ألا إنما كانت طلائع جوهر
لعمرى لئن زان الخلافة ناطقا
وصرف منه الملك ما شاء صارما
ألا هكذا فلتجلب الخليل ضمرا
عليهن زى الغانيات مشهرا
وأفضل من يعلو جوادا ومنبرا
كَنَاهَا وَسَمَّاهَا وَحَلَّى وَسُورَا
وأحسنها عاجا وساجا ومرمرا
وأجرى لها من أعذب الماء كوثرا
ببعض الهدايا كالعجالة للقرى
لقد زان أيام الحروب مُدَبَّرَا
وسهما وَخَطِيئَا وَدِرْعَا وَمِغْفَرَا



مُعزَّ المَشْرِقِينَ

ما طاب للمعز ولا لأحد من آبائه عيش بالمغرب لأنها كانت موطن الفتن
ومهد الحروب وأهلها جفاة الأخلاق غلاظ الأكباد لا يصبرون على حال
واحد من الاستقرار ولا يملون مد الأعناق الى بلاد الأندلس وملوكه
ولقد قضى غالب أيامه كما قضى آباؤه نيفاً وستين عاماً في تلك البلاد
الجبيلية في حروب مستعرة وقتال لا هوادة فيه ولا رحمة، تتخطفهم القبائل من
بين أيديهم ومن خلفهم ويفترص عدوهم الأُموى كل سائحة للبطش بهم
وإيقاد الثورات والمعائر لهم

فأى ملك هذا الذى استنفد نشاط الرجال وجلدهم ، وأى عظيم فى منزلة
المعز وهيمته وذكائه يرضى من الحياة بأية حال من حالات البقاء ، وهو الذى
خلق دائب التفكير فى مصيره ومصير القواطم من بعده

لقد كان يمى نفسه بأحسن بلاد الله مناخاً ونعمة موطأة بين قوم أهل
طاعة وسلام ونظام وخلود الى العمل المنتج ، وكانت تلك البلاد على أبوابه

تلوح له وتناديه وتستنصره ليدفع عنها القوضى والجوع والقحط وقلة الأنصار
ويرد عنها عادية القرامطة النازلين شمالها بأبواب سوريا

تلك أرض الكنانة وجنة الدنيا ولقد كانت أجمل أمانى المعز أن يكون
له بضاف نيلها عيش رغد وصفو دائم وملك لا يبلى

ورأى بثاقب رأيه ألا يدخلها بعنف الفاتحين فيروع أهلها ويبغضهم في
دولته .

لقد كان الإخشيد جاره طول أيامه سيداً على مصر يزود عنها الردى ،
وقد حاول جده القائم القاطم أن يسبر غوره فافتحم الاسكندرية بجيشه عام
٣٣٠ ولكن الإخشيد وقف له ورد عاديته . ومات الرجل وجاء من بعده ذرية
ضعاف آل أمرهم الى خادم أبيهم كافور فأحسن القيام على الملك واستدنى أهل
السكفاية ولكنه كان بغير عقب يرث ملكه وما كانت أيامه لتطول وليس
في بنى الإخشيد كفو للملك

فسرح المعز خاصة رجاله ييثون دعوته بين المصريين وييشرون بإمامته
ويعدون الناس الرخاء والنعمة وإقبال الدولة

ونفذت دعوته الى الأمراء جميعاً من أتباع الإخشيد وأتباع كافور وإلى
سائر أولياء مصر وكتابها وذوى الشأن والخطر ، وكانت قد توالى على مصر
ألوان من الحن والقفر ونزل بالناس قحط جارف لأن النيل تهاوى إلى أسوأ

أيام الشرق فاشتد الغلاء وعزّت الأفوات ثم كملت بحلول الطاعون فيهم
فكثر الموت حتى عجز الناس عن تكفين موتاهم

واستهان ملك النوبة بحكومة البلاد وضعف أهلها فدخل مدينة اسوان
واندفع منها الى بلاد الصعيد فلم يجد من يصدّه عنها حتى بلغ مدينة احميم فقتل
الناس ونهب الأرزاق وأحرق الضياع وكان ذلك عام ٣٥٣

فلما بلغ الحرج والضيق والسكر من أهل مصر كل مبلغ دخلت إليهم
دعوة المعز تمشي بالبشرى إلى الأئمة فاستجاب لها الجميع حتى كافور نفسه

وسرح المعز والدته تحج البيت الحرام لتلمس عن قرب أحوال مصر في
سفرها وأوصاها أن تكتم عن الناس نسبها ولكن النذر قد سبقوها فخرج لها
الناس وعلى رأسهم كافور فخدمها وحمل لها الهدايا ووطأ لها المركب وبعث
جنوده في ركبها فعادت إلى المغرب تثني على كافور وأهل البلاد

ومات كافور في ٢٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٧ فخرج جنوده وغلمانه يوم
موته فخرىوا بستانه ومنظرته ونهبوا دوابه وما كان في البلاد رجل حازم
يدفعهم أو يسوسهم

وعمد أهل الرأى من الناس الى غلام صغير من أحفاد الاخشيدي فولوه
على مصر على أن يكفله ابن عم أبيه الحسن بن عبد الله بن الاخشيدي ويسوس
الدولة الوزير جعفر بن الفرات

فكثرت الفتوق وقلت نفقة الجند وكان الوزير سيء الأثر في الناس
فصادر أموال الكثيرين منهم حتى فروا من وجهه

تلك كانت حال مصر حين فكر العز في فتحها وهجرة بلاد المغرب من
أجلها . أما سائر بلاد الشرق فكانت نهبا بين الأتراك والأكراد والعرب
فكان العراق وفارس من نصيب أمراء الترك ومقرهم بغداد ، واقتسم
ملوك بني حمدان ديار ربيعة والموصل وسائر الثغور بين ملكين عظيمين من
ملوكهم فكانت الموصل وما ولاها لناصر الدولة ، كما كانت حلب وسائر
الثغور لأخيه سيف الدولة وكلاهما عاصر المعز والإخشيد

ولقد كانوا خيرا ما أنجبه القرن الرابع لبلاد الشرق الاسلامي حزما ودهاء
وحسن سياسة . فمن أين للشرق ند لسيف الدولة ممدوح المتنبى الذي قضى
أربعا وعشرين عاما وهو يقاتل الروم ويغزو بلادهم ، أو ند لأخيه ناصر الدولة
الذي صبر لحروب أمراء الترك والديلم ، أو نظير للإخشيد الذي شاد بمصر
وسوريا ملكا راسخ الأركان

وتعاقبت الأحداث إلى المصير المحتوم فحكم بغداد توران التركي وكان
عسوقا ظالما فر من وجهه المتقى العباسي مستجيرا بملوك بني حمدان فلما لم
يسعفه لجأ إلى الإخشيد فنصحه بهجرة بغداد إذ لا عيش له مع توران ولكن
المتقى أحسن بالأيام ظنه فعاد إلى مقر خلافته بغداد فسلم عينيه توران وجاء

بخليفة جديد ودخل أمراء الديلم بغداد فاتحين وخلعوا الخليفة العباسي وابعوا
للمطيع عام ٣٣٤ هـ .

وتواترت الحروب بين بني بويه وبني حمدان حتى خربت البلاد
وتعطلت السبل .

ومات الاخشيذ عام ٣٣٥ هـ وبعد عشرين عاما مات سيف الدولة وكان
آخر حماة الاسلام بالشرق قطع الروم في بلاد الشام ففتحوا حلب ودمشق
وعاثوا في أرض الجزيرة وليس في طريقهم مدافع حتى أوغلوا في بلاد طرابلس
وملكوا من السواحل ثمانية عشر بلدا وأسروا من عامة المسلمين نيفا ومائة
ألف فكانت فاجعة لم ير الشرق لها نظيرا وكان ذلك عام ٣٥٨ هـ .

وهو العام الذي دخلت فيه جيوش المغرب وادى النيل لتحريره من ذل
الفقر والجذب والطواعين والقوضى ومن خوف الروم والقرامطة .

وكان المسلمون في الصدر الأول للاسلام قد غلبوا على بحر الروم من جميع
جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن للأمة النصرانية قبيل
بأساطيلهم بشيء من جوانبه وملك المسلمون سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل
فامتلك أهل الأندلس جزائر ميورقة ومنورقة ويابسة كما امتلك بنو الأغلب
ولاية افريقية باسم خلفاء العباسيين جزائر صقلية سنة ٢١٩ ثم سردانية وقوصره
ومالطة واقريطش وقبرس ثم جاء الفاطميون أيام المهدي يغزون بأساطيلهم من

المهدية فاتزعوا صقلية لأنفسهم وجعلوا عليها واليا من قبيلة كتامه ثم فتحوا إقليم جنوه .

وكانت أساطيلهم تعبر البحر ذاهبة آية وجيوشهم تعبر مضيق مسينا إلى بر إيطاليا فتوقع بملوك الإفرنج وتشنخ في ممالكهم فأنحازت أم النصرانية بأساطيلها إلى الجانب الشمالي الشرقي من شواطئ بحر الروم مما يلي بلاد اليونان وجزرها لا يبارحونها وأساطيل الفاطميين والأمويين تمنع فيهم وتتعتبهم وقد ملأت فسيح بحر الروم بسفنها الحربية والتجارية .

وكانت أشد الاحداث في الجانب الأوسط والغربي من بحر الروم حيث مقر الدولتين العظيمتين الأموية والفاطمية، وكان أسطول الأمويين أيام الناصر وولده المستنصر قد بلغ إلى مائتي مركب وكذلك كان أسطول الفاطميين يربط بعضه في ثغور صقلية ومنها تقوم الغزوات على شواطئ إيطاليا .

وكان ملك القسطنطينية في أول النصف الثاني من القرن الرابع الهجري من غير بيت الملك ولكنه كان جبارا شديدا البأس قاتل أمراء المسلمين المتأخمين لبلاده وضايقهم وحارب سيف الدولة ابن حمدان أشد قتال فكانت الحرب بينهما سجالات ثم اندفع ملك الروم يفتتح بلاد الاسلام وثغوره فلما مات سيف الدولة لم يجسر أحد من ملوك الاسلام بالشرق أن يقف في وجهه .

وكان المعز لذلك العهد قد طهر المغرب من دعاة الأمويين ونال عليهم نصرا حاسما بلغت شهرته بلاد المشرق .

وعز على المسلمين في كل مكان أن يحل بالشرق ذلك البلاء وتحدث به
أهل المغرب وذكروا سيف الدولة وتشيعه للفاطميين ودعاه لهم على منابر
حلب وغيرها من البلاد التي أخضعها وساء لهم ما حل ببلاده من عادية الروم
فدفعوا شاعر المعز يلوح بتلك الأحداث بين يديه ليثير حميته ويحفزه للحرب
على الروم فوقف ابن هانيء بين يدي المعز وأنشده من غرره وعجاز أدبه
ما اخترنا بعضه فقال :

فكأنما وقع الصريح إليهما	بمحاصر انطاكية فاسترجفنا
نغر أضاع حريمه أربابه	حتى أهين عزيزه فاستضعفنا
ما لي رأيت الدين قل نصيره	بالمشرقين وذل حتى خوفنا
أسنى على الاحرار قل حفاظهم	ان كان يغنى الحر أن يتأسفنا
هلا استعان بآل بيت محمد	من لم يجد للذل عنكم مصرفنا
فمدينة من بعد أخرى تُسبى	وطريقة من بعد أخرى تقنينا
حتى لقد رجفت ديار ربيعة	وترزلت أرض العراق تخوفنا
والشام قد أودى وأودى أهله	إلا قليلا والحجاز على شفنا
أيسر قوما أن مكة غودرت	بمجر جيش الروم قاعا صفصفا
هذا المعز بن النبي المصطفى	سيذب عن حرم النبي المصطفى
في صدر هذا العام لا يلوى على	أحد تلت خلفه وتوقفا

فنفذت كلمات ابن هاني* إلى فؤاد المعز وعقد عزيمته على مجاهدة الروم
والبطش بهم .

وكانت جزيرة صقلية لا يزال فيها بقية من ثغور قليلة في حكم ملوك
الأفرنج فأمر المعز قائده أحمد بن الحسن بأن يغزو ثغر رمطه ومقاتلة من فيه
من الأفرنج فحاصر القائد ذلك الثغر وقاتل أهله أشد قتال فاستغاثوا بملك
القسطنطينية فأمدهم بأربعين ألفا فنزلوا ثغر مسينا وزحفوا إلى المسامين وكان
قائدهم اسمه منويل فقاتلهم المسلمون وقتلوا منويل وهزموا الروم وفتحوا مدينة
رمطة عنوه .

فأرسل ملك الروم أسطولا عظيما عوننا لأهل صقلية فقاتلهم الفاطميون
ودمروا أسطولهم وأسروا عظماهم وكانت واقعة الجواز الشهيرة عام ٣٥٤ هـ
وبها انفرد الفاطميون بالسيادة على بحر الروم وانتزعوا من الروم أعظم نصر
كان دونه النصر الذي أحرزوه على بلاد الشرق الاسلامي .

وأقبل ملوك المغرب وسائر أمرائه على المعز يهنئونه بالنصر ونهض بينهم
شاعره ابن هاني فقال :

في الله تصديق ما في النفس من أمل	وفي المعز مقر البأس والوجود
ما أجزل الله ذخرى قبل رؤيته	ولا انتفعت بإيمان وتوحيد
لله من سبب بالله متصل	وظل عدل على الآفاق ممدود
قد حا كته ملوك الروم في لجب	وكان لله حكم غير مردود

قضيت نحب العوالى من بطارقهم وللدماشق يوم جسد مشهود
لو يعلموا أن ذلك العزم منصلت وان تلك المنسايا بالمراسيد
لو كان بالروم علم بالذى لقيت ما هنتت أم بطريق بمولود
أرض أقت رنيننا فى مآتمها يغنى الحماثم عن سجع وتغريد
قد كانت الروم محذورا كتابها تدنى البلاد على شحط وتبعيد
واستراح المعز من حروب الأندلس والروم فجلس بالقصر فى يوم شات
بمحاضرة أبية مدينة المنصورية وقد ملئت يداها بالرشائل من دعائه بمصر
يستحشونه على فتحها فاستدعى عدة من شيوخ كتامة فدخلوا عليه فى مجلس
قد فرش باللبود وكان حوله كساء وعليه جبة وحوله أبواب مفتحة تقضى إلى
خزان كتب وبين يديه دواة وكتب فقال لهم يا إخواننا لقد أصبحت اليوم
فى مثل هذا الشتاء والبرد فقلت لأم الأمراء وإنما الآن بحيث تسمع كلامى
أترى إخواننا يظنون أنا فى مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ونتقلب فى المتقل
والديباج والحريير والسمور والخمر والقباء كما يفعل أرباب الدنيا ثم رأيت أن
أنفذ إليكم فأحضرتكم لتشهدوا حالى إذا خلوت دونكم واحتجبت عنكم،
وإنى لا أفضلكم فى أحوالكم إلا بما لا بد لى منه من دنياكم وبما خصنى
الله به من إمامتكم، وإنى مشغول بكتب ترد على من المشرق والمغرب أجيبت
عنها بخطى وإنى لا أشتغل بشىء من ملاذ الدنيا إلا بما يصون أرواحكم ويعمر
بلادكم ويذل أعداءكم، فافعلوا يا شيوخ فى خلواتكم مثل ما أفعل ولا تظهروا

التكبر والتجبر فينزع الله النعمة عنكم وينقلها الى غيركم وتحننوا على من وراءكم ممن لا يصل إلى كتحننى عليكم ليتصل فى الناس الجميل ويكثر الخير وينتشر العدل واقبلوا بعدها على نساءكم والزمو الزوجة الواحدة التى تكون لكم ، ولا تشرهوا الى التكثر منهن والرغبة فيهن فيتنغص عيشكم وتعود المضرة عليكم وتنهكوا ابدانكم وتذهب قوتكم وتضعف نجاتكم فحسب الرجل الواحد الواحدة ونحن محتاجون الى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم . واعلموا انكم اذا لزمتم ما امركم به رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم ، انهضوا رحمكم الله ونصركم »

فأى بيان يرضى نهم الباحث فى حياة المعز أدهى للمعجب والتقدير من ذلك البيان الذى جمع بين حب التواضع والعزوف عن الترف والملاذ وبث الفضائل وإسداء المعروف ، وأى دستور لأسرة الرجل أبقى لسعادة الدنيا ونعمة العيش مما حث عليه المعز فى بيانه

لقد رأى بعينه رؤساء العشائر يجمعون الخطايا والجوارى كما كان يفعل بلكين بن زيرى الصنهاجى الذى كان فى قصره أربعائة حظية وقد جاءته البشارة فى يوم واحد بولادة سبعة عشر ولداً .

وحكى خازن أموال المعز أبو جعفر حسين بن مهذب أن المعز استدعاه يوماً فدخل فوجده فى وسط القصر وقد جلس على صندوق وبين يديه ألوف

صناديق مبددة فقال له : هذه صناديق مال قد شذ عن ترتيبها فانظرها ورتبها ، قال فأخذت أجمعها الى أن صارت مرتبة و بين يديه جماعة من خدام بيت المال والفراسين فأنفذت إليه أعلمه فأمر برفعها في الخزانين على ترتيبها وأن يعلق عليها وتحم بخاتمه وقال : قد خرجت عن خاتمنا وصارت إليك ، فكانت جعلتها ٢٤ مليون دينار وهى ذهب المعز الذى ضرب بكثرته المثل ، جمعه ثم أنفقه بسخاء دونه سخاء حاتم على جنده الذين فتحوا مصر وعلى المصريين يوم الفتح وبعده . ولقد صب الباقي منها أكداساً كأحجار الرحي فحملها بين يديه الى مصر وصبها قوالب متراصة على أعمدة باب قصره فسمى من أجل ذلك باب الذهب ، وكان الناس في آخر أيام الدولة الفاطمية يرددون الأعمدة بالمبارد فيأخذون منها الذهب

وأكثر المؤرخون من وضع القصص عن أحوال مصر وضعف رجالها ، يمهدون بذلك السبيل لغزوها ولكن البلاد كانت في غنى عن تلك القصص الموضوعه فقد ساءت الأحوال بعد موت كافور وبادر بقية الناس من الأمراء والكتاب والقواد فكاتبوا المعز وسألوه أن يرسل الى مصر جيشاً مع بعض رجاله فيسلمونه زمام الأمر

واقتنع المعز بأن مصر قد نضجت وأن قطفها يجلس يعد لها الجيش والقائد الذى يكون على يديه الفتح

زهيب المعز

كان للمعز سياسة مبنية لم يشذ عنها في سائر أعمال عرف بها ووصى بها عماله وقواده فانه لم يول أحدا من أخوته أو أبنائه أو بنى عمه عملا من أعمال الدولة ، بل كان يختار للقبائل أمراءها منها بعد التثبت من ولائهم لامامته والتفاني في طاعته .

وقد عرف الناس تلك الخلة فيه حين وصى يوسف بلكين بن زيري الذي استخلفه على بلاد المغرب فقال له ضمن وصاته :

« لا تول أحدا من اخوتك وبنى عمك فانهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك » .

ولما عزم على فتح مصر كان نظره إلى قبيلة كتامة المخلصة على أن يكون منها كتلة الجيش وسواده ، ثم أدار بصره حوله لاختيار القائد حتى استقر على جوهر .

وكان رجل الدولة الناشئ في أحضانها المتقلب في نعمتها المعروف بكفايته

وذ كانه وحسن سياسته وشدة إخلاصه لإمامه، وقد أبلى في الحرب التي شنها على أهل المغرب وبنى أمية وكان أنداده فيها قواد الأمويين وزعماء القبائل فبزم بمهارته الحربية ودهائه وإقدامه، وكان المعز وآبؤه من قبله قد دروا صغار العلمان من الصقالبة من أهل الذكاء وصلابة العود على فنون القتال فلما شبوا خرج من بينهم بعض القواد أمثال سعادة وريدان الذين حضروا فتح مصر وخلدوا أسماءهم على بعض أحياء مدينة القاهرة .

لقد كان فتح مصر أعظم الفتوح الفاطمي وأجلها وبه زادت قوتهم وعظمت شوكتهم لأن الخلافة العباسية كما بينا كانت قد ضعفت عن القيام بسياسة بلادها، ففسدت الأحكام واختل النظام واستبد الوزراء والقواد وخلعوا طاعة الخلفاء واستقلوا بالبلاد فنشعبت الدولة شيئاً فشيئاً إلى دول صغيرة، وتغلب عليها الأمراء من الفرس والترك والأكراد والعرب وغيرهم، واستولى القرامطة على سوريا وقسم من جزيرة العرب، والسامانيون على خراسان، والأمويون على الأندلس، والفاطميون على إفريقية والمغرب، وبنو حمدان على ما بين النهرين وديار بكر، وبنو بويه على بلاد فارس .

وكانت مصر من أضعف بلاد الخلافة وأشدّها اضطراباً، وكان الفاطميون من عهد دخولهم المغرب ساعين في نشر دعوتهم بها فاستجاب لدعائهم خلق كثير حتى لقد دخل في دعوتهم حاكم البلاد نفسه وهو كافور .

وكان آباء المعز قد حاولوا فتحها فدفعهم عنها يقظة حكامها وكثرة جندها

ثم مات كافور وكان قد استحكم بها الغلاء وشاعت الفتن وشغل عنها خليفة بغداد بما كان من الحروب بين بختيار بن معز الدولة وابن عمه غضد الدولة .
فاختار المعز جوهرًا ليفتح له مصر ويقيم له على ضفاف النيل مدنا تحكي بلاد الأندلس .

وأنفذ من خاصته رجلا اسمه خفيف الصقلي إلى شيوخ كتامة برسالة أراد بها أن يمتحن شجاعتهم وأنفتهم، فقال لهم خفيف: إن أمير المؤمنين رأى أن ينفذ رجلا إلى بلدانكم يقيمون بينكم ويأخذون صدقاتكم ومراعيكم ويحفظونها عليكم في بلادكم فإذا احتاج إليها أنفذ خلفها فاستعان بها على ما هو بسبيله .

فقال بعض شيوخهم لخفيف لما بلغه ذلك: قل لمولانا والله لا فعلنا ذلك أبدا كيف تؤدي كتامة الجزية ويصير عليها في الديوان ضريبة وقد أعرها الله قديما بالإسلام وحديثا معكم بالإيمان وسيوفنا بطاعتكم في المشرق والمغرب .
فعاد خفيف إلى المعز بذلك فأمر بإحضار جماعة كتامة فدخلوا عليه وهو راكب فرسه فقال :

ما هذا الجواب الذي صدر عنكم .

فقالوا هذا جواب جماعتنا ما كنا يا مولانا بالذي يؤدي جزية تبقى علينا .

فقام المعز في ركابه وقال :

بارك الله فيكم ، فهكذا أريد أن تكونوا وإنما أردت أن أختبركم فأنظر كيف أتم بعدى .

وعباً المعز جيشاً جراراً قوامه ثمانون ألف دارع وعلى رأسه جوهر، ووصى عمال بركة أن يكتروا من حفر الآبار في طريق الجيش لأنها مفازة كأ كبر العقبات في طريق مصر، وهي أضعاف مفازة العراق إلى الشام لا يخاطر باقتحامها جيش كبير إلا إذا تحكم في الشرب واطمأن إلى غزارة الماء التي يحملها، فقد كان الماء آفة الغزاة قديماً وحديثاً .

وما أخفق المهدي الفاطمي جد المعز في غزو مصر أول القرن الرابع إلا بسبب الماء وقلة وسائل حمله، وتعذر حفر الآبار في بركة التي ما كانت تدين له بولاء، ووثوب قبائل الأباضية الضار بين بحبال نفوسه بطرابلس وهم ألد أعدائه وكان جوهر أيام الفتح في الثامنة والخمسين وهي سن استكمال العقل ورسوخ القدم فقد ولد في أول القرن الرابع .

وكان مع ما عرف به من حسن سياسته وحزمه كاتباً بليغ العبارة له توقعات مستحسنة على الرقاع التي ترفع إلى بابه، فقد وقع على رقعة منها فقال :
شوء الاجترام أوقع بكم حلول الانتقام، وكفر الانعام أخرجكم من حفظ الذمام فالواجب فيكم ترك الإيجاب، واللازم لكم ملازمة الاحتساب، لأنكم بدأتهم فأستأتم، وعدتم فتعدتيم، فابتدأؤكم ملوم، وعودكم مذموم .
وعاش جوهر حتى بلغ الثمانين في دولة العزيز بن المعز .

وكان فتح مصر مظهراً رائعاً لأعظم خلال المعز سماحته وصلابته، فقد طلع على الناس بكل ماله الذي ادخره من لدن آبائه الأولين ومبلغه أربعة وعشرون مليوناً من الدينارين ألقاها بين يدي جوهر ليضعها حيث شاء

وما بكثير على المعز أن ينال مصر بتلك الصفقة الغالية فقد سلخ من أيام ملكه إلى تلك الساعة سبعة عشر عاماً بالمغرب وسبقه آباؤه الثلاثة فقصوا قرابة نصف قرن فما قر لأحدهم ناظر ولا طاب لهم عيش

لقد كان المغرب محنة الفاطميين صبروا عليها وعالجوها بأنضج العقول وتوسموا في أعقابهم من يحمل بقيتهم إلى خير مستقر ، فكان نابغتهم المعز مفسر أخطامهم ومصدق ظنونهم وآمالهم . وأمر المعز فحمل إلى جوهر أضعاف ما يتسع لأرزاق الجند ثم أدخله إلى خزائنه ليحمل ما يشاء منها .

وأكثر من الخلوة بجوهر وطالعه بسره ومخاوفه وأوصاه بالرفق بأهل مصر وإسباغ النعمة عليهم ثم حذره من بأس القرامطة فانهم سيغزون مصر على أثر الفتح وأملى عليه رغبته في اختيار موضع لحاضرة القواطم بمصر

وجاء عيد المولد النبوي يوم الخميس الثاني عشر من ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ فاحتفل به المعز بمدينة القيروان واستمد فيه العون من الله واستلمه المدد من جده الرسول الكريم ثم أذن لجوهر بالسفر على بركة الله

وركب جوهر يوم السبت فخرج إليه المعز في أولاده وولى عهداً وأعمامه وبنى عمه وسائر الفاطميين

والتفت إلى شيوخ كتامة وكبار القواد الذين حول جوهر وقال : « والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر ولتدخلن مصر بالأردية من غير حرب ولتنزلن خرابات ابن طولون وتبنى لكم مدينة تسمى القاهرة ولسنا في حاجة لتمحيص تلك القصة لأن مصر كانت قد بلغت من سوء الحال حداً لا تحسد عليه

فقد كان القائم بالأمر فيها طفلاً من حفدة الاخشيد وإلى جانبه قائد من بقايا رجال الاخشيد اسمه شمول يرعى فلولاً من الجند ليس في خزان الدولة متسع لأرزاقهم، ومن فوقهم وزير سيء التدبير كثير المصادرات لأموال الناس وهو أبو الفضل جعفر بن القرات فقد تحاماه وجوه الناس خوف المصادرة، وكان ممن خافه على نفسه عظيم من أهل العقول الكبيرة وهو يعقوب بن كلس الإسرائيلي الذي دبر شؤون الدولة أيام الاخشيد فعزله ابن القرات وصادر أمواله فاستتر بمصر أياماً ثم سافر الى المغرب وخلي بالمعز وهون عليه أمر الفتح وكشف له عن عورات القطر ولبث في حاشيته الى أن عاد في ركابه فكان له من أجل الوزراء

وان ما صنعه ابن كلس وأشباهه ممن لحق بخدمة المعز من أهل مصر قد شجعه على المضي في نبوءته فبشر أمراء جيشه بالفتح القريب والدخول الى مصر في ثياب الحضر بغير دروع سابغة ولا رماح مشرعة

وبدا المعز أن يكشف للناس عن صلابته وحب الإذعان لمشيئته فأمر الناس أن يترجلوا لجوهر فلا يتخلف عن ذلك صغير ولا كبير ، وبدأ بولي عهدده وبقية أبنائه وأهل بيته ، ثم بأركان دولته وسائر الناس وكتب بذلك لولاة الأمصار التي يمر بها جوهر فخضع الجميع لمشيئة المعز وترجلوا .

وكان عملا جليلا وتشريفا ليس بعده مزيد تقدر جوهر ، فترجل جوهر بعد ذلك عن دابته ومشى إلى المعز فقبل يده ثم ركع وقبل حافر فرسه ، وما سمعنا في التاريخ أن ملكا رجّل الناس جميعا لقائد من قواده إلا ما كان من أبي بكر رضى الله عنه حين خرج يودع أسامة بن زيد ومعه جمهرة الصحابة من المهاجرين والأنصار فقد أمر أسامة أن لا يترجل .

لقد تحدث الناس طويلا عن ذهب المعز الذي حمه جيش الفتح ولكن حديثهم عن وداع جوهر أرهف الآذان وبهر العقول ، فقد كان المعز أكثر الناس ثقة بكفاية جوهر وإخلاصه وولائه فحمل الناس على تسكريمه والاذعان لرياسته .

ولم يكف المعز ما أسبغه على جوهر من المال والجاه فأحب أن يكون وداعه يوما خالدا من أيام دولته فأمر ابن نهان أن يوليه من أدبه ورقائق أشعاره فقام بين قباب الجند وقال :

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع
فلم أدر إذ سلمت كيف أشيع
وأين ومالي بين ذا الجمع مسلك
فلا عسكر من قبل عسكر جوهر
فلما تداركت السرادق في الدجى
تحف به القواد والأمر أمره
برود أمير المؤمنين بروده
وأعلامه منشورة وقبابه
وسل سيوف الهند حول سريره
فسر أيها الملك، المطاع مؤيدا
وقد أشعرت أرض العراق خيفة
وأعطت فلسطين القياد وأهلها
وما جهلت مصر وقد قيل من لها
وإنك دون الناس فأح قفلها
وبلغ الجيش يرة فخرج عاملها أفلح الكتامى لاستقبال جوهر وكان قد
جاءه كتاب المعز يأمره أن يترجل عند لقائه فحاول أفلح أن يهدى جوهر
ألف دينار على أن يقبله من الترجل له فأبى جوهر إلا أن تتم مشيئة

مولاه المعز فأذعن أفلح صاعرا وتمت كلمة المعز وصلابة عزمه في تقديس مشيئته لتوفير حرمة من اختصه من كبار دولته. وترينا القصة التالية مبلغ صلابة المعز في فرض طاعته على أركان الدولة، فقد كان بين قواد جوهر أمير من كتامة اسمه جعفر بن فلاح حضر معه فتح مصر ثم سرحه لفتح الشام فتقدم على رأس جيشه حتى دخل دمشق وأنفذ كتبه بالفتح منها إلى المعز رأسا بافر يقية فغضب المعز منه ورد كتبه كما هي مختومة لم تقض وكتب إليه .

قد أخطأت الرأي لنفسك نحن قد أنفذناك مع قائدنا جوهر فأكتب إليه فما وصل منك إلينا عن يده قرأناه ولا تتجاوز به بعد فلسنا نفعل لك ذلك على الوجه الذي أردته وإن كنت أهله عندنا ولكننا لا نستفسد جوهرنا مع طاعته لنا .

ودخلت الجيوش مصر وبلغت طلائعها ناحية تروجه وهي قرية من أعمال مركز أبي المطامير بمديرية البحيرة في ١٨ من رجب سنة ٣٥٨ فاضطربت مصر بأسرها وفر منها الحسين بن عبد الله بن الأخشيد وبقى قائد الجند شمول في فلول لا تعنى، وجمع الوزير جعفر بن الفرات أهل الرأي يتذاكرون بينهم حرج الموقف فبعثهم دخول رسل جوهر ينصحون بالتسليم فأجابهم سائر من حضر بالخضوع وطلبوا أمانا لأرواح الناس وأموالهم، وأوفدوا إلى جوهر سيدا من سادات العلويين وهو مسلم بن عبد الله الحسيني يسألونه الصلح ويستسامون

فرحب به جوهر وأجابته إلى طلبه وكتب له ولسائر أهل مصر عهدا بالأمان
وسلامة الأرواح والأموال والزرع .

وعاد مسلم إلى مدينة مصر يحمل الصلح والسلام ولكن فلول الاخشيديين
أخذتهم العزة وأنفوا أن يساموا مصر بغير قتال .

وخرج بهم قائد اسمه نحرير الشوبذاني وربطوا ناحية الجيزة وحفظوا
جسور النيل ومنعوا العبور إليهم وأعلنوا أنهم سيقاتلون .

فندب لهم جوهر قائده الكتامي الشهير وهو جعفر بن فلاح وقال له :
لهذا اليوم أراك مولانا المعز لدين الله .

فسار جعفر بكتائبه جنوبا حتى دخل بلاد مركز امبابه وجعل يتحسس
المخاضات حتى بلغ ناحية تسمى منية الصيادين ، وتسمى اليوم ميت النصرى
فاستولى على مخاضة عند منية شلقان وهي قرية تقع شرق القناطر الخيرية .

وعبر جعفر النيل عريانا في سراويل ومعه رجاله يخوضون النهر واستقبل
الجنود المرابطون له فهزمهم واستأمن الباقون .

ولحق جوهر بجنوده وأرسل رسولا يحمل راية الأمان فسكن الناس
وفتحت أسواق مدينة مصر .

وفي يوم الأربعاء ١٨ من شعبان سنة ٣٥٨ هـ بعد زوال الشمس دخل
جوهر المدينة في طبوله وبنوده وعليه ثوب ديباج مذهب كما بشر به المعز

وطاف بها حتى خرج من دروبها الشمالية وامتد به المسير حتى أناخ بالموضع الذي أصبح مدينة القاهرة فأمر الناس فحفروا أساسا للسور وللقصر وابتأوا ليلهم يبنون باللبن أول أسوار المدينة .

وأصبح الصباح وحضر أهل مصر يهتفون جوهرًا بالفتح فوجدوه قد حفر أساس قصر الخلافة وأدار السور حول مناخه الذي نزل فيه ثم احتفر من شمالي المناخ خندقًا عظيمًا ليكون للجيش حصنًا يمنع من عادية القرامطة إذا دهموهم ولا يزال موضع الخندق ماثلاً في مسجد المغفور له السيد عبد الرحيم الدمرداش ومستشفاه العظيم .

وخرج جوهر في صباح الخميس ١٩ من شعبان يستقبل أشرف الناس والوجوه والعلماء فاجتمعوا بالجيزة ومعهم الوزير جعفر بن القرات .

ونادى مناد من قبل جوهر بأن يترجل الناس جميعاً إلا الشريف مسلماً ابن عبد الله الحسيني والوزير فوقف جوهر والشريف عن يمينه والوزير عن شماله يسلم على الناس .

وكتب إلى مولاة المعز بالفتح وانطلق البشير فبلغ القيروان في منتصف رمضان من تلك السنة فتكون الغزوة قد استغرقت ستة أشهر كاملة .

فمذ خروج جوهر من القيروان في منتصف ربيع الأول إلى أن بلغ أبواب مصر في منتصف شهر رجب يكون قد قطع الطريق بجيشه الجرار في

أربعة أشهر ومضى بين بلوغه الديار ودخوله العاصمة فاتحا شهر كامل وبلغت
الرسل إلى إفريقية بالبشرى في شهر .

وفي شهر ذى الحجة من سنة ٣٥٨ وبعد تمام الفتح بأربعة أشهر جهز
جوهر القائد الكتامي جعفر بن فلاح لفتح الشام فافتتح البلاد ونشر الدعوة
للمعز في أرجائها ثم دخل دمشق فاتحا وخطب على منابرها للمعز في المحرم من
سنة ٣٥٩ .

مذهب الشيعة

كانت أكبر وصية قالها المعز لجوهر أن يقيم بمصر الدعوة الفاطمية وينشر بين الناس مذهب الشيعة ويكسو أئمة المساجد بالبياض وصفائح المنابر بلواء الحمد، وأن يرابط بجنوده خوف عدوان القرامطة الذين لا يقولون خطرا وعنفا عن أقرانهم برابرة المغرب، وأن يبني له ولأهله وجنده وديوانه مدينة لا تقل في حسنها ونسقتها عن مدائن الأندلس التي يساميه بها الناصر الأموي وولده المستنصر.

وليس في كتب المؤرخين ما يدل على أن جوهر قد أمر الخطباء بقطع خطبة العباسيين والدعاء للمعز على منبر الجامع العتيق وابن طولون في أول جمعة أدركته بمصر على أن الراجح أن يكون قد طلب ذلك لأن البلاد أقرت بوقوع الفتح واستسلمت حكومتها للنائب عن الخليفة الفاتح فلا يعقل أن يبقى ولاؤهم لبني العباس بعد أن خرجوا من طاعتهم ودخلوا في طاعة الفاتح الفاطمي

وما كان ليضيرهم أن يدعوا على منابرهم للمعز طالما أنهم يؤدون الصلاة وفقا لشعائرهم التي يرضونها آمنين .

وكان من حسن السياسة أن يقنع جوهر من الفتح في أول الأمر بالدعاء لمامه على المنابر على أن يعالج أمر الدعوة إلى المذهب الجديد في الخطوة التالية وكانت تقاليد الشيعة ظاهرة يجاهرون بها ويدعون إليها في الأقطار التي يحكمونها ومن الإنصاف أن نقول انهم ما كانوا يكرهون أحدا على الأخذ بها إلا ما كان عاما يشترك فيه الجميع كالأذان والصلاة الجامعة .

ومن أركان مذهبهم قطع صلاة التراويح في رمضان، وصيام يومين قبل رمضان والقنوت في صلاة الجمعة قبل الركوع، والجهر بالبسملة في الصلاة المكتوبة، وإسقاط (الصلاة خير من النوم) في أذان الصبح، وزادوا عليها (حتى على خير العمل محمد وعلى خير البشر) .

على أن من الإنصاف أن نقول بأنهم كانوا يتألفون أهل السنة والجماعة ويمكنونهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم ، وكان مذهب مالك والشافعي وابن حنبل ظاهرة الشعار في مملكتهم بخلاف مذهب أبي حنيفة، وكانوا يراعون مذهب مالك ومن سألهم الحكم به أجابوه، وشهد الناس جميعا بحسن سيرهم في رغبتهم واستمالة قلوب مخالفينهم والإقبال على من يفد عليهم من الناس جل أودق ويعوضون أرباب الهدايا باضعافها .

وما كانت حكومتهم تعترف بسطان لأية حكومة أخرى ولذلك كانوا

يرسلون الدعاة إلى جميع الأقطار الإسلامية ورئيس الدعوة كان يسمى داعي
الدعاة وهو الذي يأخذ البيعة للامام .

وبهؤلاء الدعاة ملكوا اليمن والبحرين والحجاز وخطب لهم ببغداد نفسها،
وكان خلفاء العباسيين من أول أمرهم يطاردون العلويين ويأمرون الولاة
باخراجهم من مصر وحملهم إلى العراق وسائر البلاد حتى لا يذيع التشيع بين
الناس ولكنهم تكاثروا واشتد ساعدهم بمصر .

فكانوا يقفون بقبر السيدة نفيسة والسيدة كلثوم العلوية للبكاء على
الحسين في يوم عاشوراء فيتصدى الناس لهم، وكان السودانيون أكثر الناس
زراية بهم ونيلا من تقاليدهم يتحسكون بهم ويقولون في وجوههم (معاوية
خال على) وكان بمصر من العلويين أهل الأقدار الرفيعة وكان سيد الجميع
وأدناهم إلى قلوب الحاكمين أبا جعفر مسلم الحسيني لم يمنعه جاهه ومقامه الرفيع
من تصدى السفهاء له الذين كانوا يواجهونه بقولهم (معاوية خال على) .

ويشبه ذلك ما كان عليه جمهور أهل القاهرة في إبان الثورة المصرية
الأخيرة من النداء (سعد فوقك يا عدلى) .

ولقد كانت أعمال الشيعة شائعة ببغداد نفسها شيوعها ببلاد المغرب
وإفريقية ، فن العادات المرعية في اليوم العاشر من المحرم أن يغلقوا الأسواق
ويعطلوا المعاش ويظهروا الحزن والبكاء على الإمام الحسين .

وكان مقر الشيعة في بغداد بالكرخ وكانت لهم ثورات وتراشق مع بقية

الناس فيناصرهم الأمراء من بني بويه لأنهم يتشيعون وكان التشيع قائماً في حلب أيام سيف الدولة، ولعهده نادى المؤذنون (حى على خير العمل محمد وعلى خير البشر) وتم ذلك عام ٣٤٧ هـ والمعز في أشد قتال مع الناصر الأموى .

وبينا كان جعفر بن فلاح الكتامى يدخل دمشق فاتحاً باسم المعز ويدعو له على منابرها في الحرم من سنة ٣٥٩ كان أبوالمعالى بن سيف الدولة يخطب للمعز على منابر حلب وحمص وسائر أعمالها .

وقضى جوهر بقية شعبان وشهر رمضان بأكله يمهّد للدعوة ويلقى العلماء ووجوه الناس حتى أقبل عيد الفطر فعمد بالجامع العتيق حفلة الدعوة الفاطمية في غرة شوال سنة ٣٥٨ وكانت بعد أربعين يوماً من الفتح فأزال السواد وهو شعار العباسيين وألبس الخطباء الثياب البيض ، وكان الخطيب أبا محمد الشمشاطى فدعى للمعز على المنبر . وأجمع المؤرخون على أن الدعوة أقيمت في ذلك اليوم ولكنهم لم يغيروا الأذان إمهالاً للناس ورفقاً بهم وتدرجاً بمقاصدهم حتى يأنفها جمهور الأمة

وتراخى جوهر في الدخول بتقاليد الشيعة أكثر من ثمانية أشهر حتى أنس الناس إليه وأمنوا بجانبه وذاقوا حلاوة عدله ورخاء عيشه واستقر بينهم الأمن والسلام ووقاهم الله شر الغلاء والقحط

فلما كان يوم الجمعة الثامن من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ صلى جوهر
الجمعة بجامع ابن طولون في موكبه وكبار أمرائه وحاشيته وعلماء الشيعة وجنده
فأذن المؤذنون لأول مرة بمصر بالأذان الشيعي وسمع الناس (حتى على خير
العمل) .

وقام الخطيب في الثياب البيض - وكان عبد السميع بن عمر العباسي -
فزاد في الخطبة ما يأتي :

« اللهم صل على محمد المصطفى وعلى علي المرتضى وعلى فاطمة البتول
وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم
تطهيرا ، وصل على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين »

وصلى جوهر خلف الإمام ، فقرأ الإمام سورة الجمعة وقتت في الركعة
الثانية وانحط الى السجود ونسى الركوع فصاح به قاضي العسكر علي بن الوليد
(بطلت الصلاة . . . أعد الصلاة ظهراً أربع ركعات)

وأنكروا على الامام أنه لم يجهر بيسم الله الرحمن الرحيم في كل سورة
ولا قرأها في الخطبة

وصلى جوهر بالجامع العتيق بعد ذلك بأسبوعين وأمر أن تسرى شعائر
الشيعة في الصلاة والأذان فكان ما أراد واتبعها الناس على مضض وكتب
جوهر بذلك كله الى المعز

وآشجع الشيعة بمصر وتظاهروا بشعائرهم ونادوا بتفضيل عليّ على سائر الصحابة .

فاشتكى المترددون على المسجد العتيق بأن امرأة مجوزاً عمياء تشد بباب المسجد قصائد في رثاء الحسين والثناء عليه والتعريض بغيره فأمر جوهر بجس العجوز فتدأى الناس في حماقتهم ونادوا جهاراً (معاوية خال عليّ وخال أمير المؤمنين) فأرسل جوهر حين بلغه ذلك رجلاً الى المسجد فنأى :

أيها الناس أقولوا القول ودعوا الفضول فأنما حبسنا العجوز صيانة لها فلا ينطقن أحد إلا حلت به العقوبة الموجعة «
وأطلق سبيل العجوز

وفي ربيع الأول من سنة ٣٦٢ قبيل حضور المعز كان محتسب مصر سليمان بن عمرو فعز جماعة من الصيارفة فشغبوا وصاحوا (معاوية خال عليّ ابن أبي طالب) فهم جوهر أن يحرق رحبة الصيارفة لولا خوفه على المسجد وحضر المعز ودخل القصر في رمضان سنة ٣٦٢ فكتب على سائر الأماكن بمدينة مصر

(خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام)

على أن الخليفة الحاكم بأمر الله حافد المعز أمر في عام ٤٠٠ هـ بترك

(حتى على خير العمل) من الأذان محاسنة لأهل السنة بمصر فكان أسمح
نفساً من جده المعز مع أن المؤرخين شنعوا فيه وتقولوا عليه الكفر وسلقه
العباسيون بالسنة حداد

لقد أتم جوهر شطرين مما وصاه به المعز ففتح مصر ونشر بها المذهب
الشيعة وشرع يتم ما أمر به من إقامة حاضرة للفاطميين ينزلها المعز عند
قدومه .

فاختط المكان الذي تشاد عليه المدينة وأحاطه بسور عظيم ودرعه بخندق
فسيح في أقصى الشمال، ثم استدعى المنجمين وأخبرهم بما يريد من عمارة بلد
تكون دار الخلافة ومقر العالوين وجنودهم وأمرهم باختيار طالع سعيد ليضع
به أساس البناء فاختراروا طالعاً لوضع الأساس وطالعاً لحفر السور

واختطت المدينة يوم السبت ٢٤ من جمادى الآخرة سنة ٣٥٩ بعد نشر
الدعوة بشهر فجعلوا بدائر السور قوائم من خشب بين كل قائمتين حبل فيه
أجراس وقالوا للعمال إذا تحركت الأجراس فالتقوا ما بأيديكم من الطين والحجارة
فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك، فاتفق أن غراباً حط على حبل من تلك
الحبال فتحركت الأجراس جميعاً فظن العمال أن المنجمين قد حركوها فالتقوا
ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا فصاح المنجمون (القاهر في الطالع) .

ففى ذلك وفاتهم ما قصدوه. ويقولون إن المريح كان في الطالع عند
ابتداء وضع الأساس وهو قاهر الفلك فسموها القاهرة .

وكان محل القاهرة رملة بين مدينة مصر وعين شمس يكتنفها الجبل الأحمر من الشرق وخليج أمير المؤمنين من الغرب وما كان بها إلا بستان كافور الأخشيدى وكان الخليج فاصلا بين الرملة وقرية أم دين أو المقس، وكان النيل يجرى بشاطئ المقس موضع جامع أولاد عنان إلى الشمال الشرقى حيث الحى المعروف اليوم بالفجالة، ووضعت أبواب قصر الخلافة يوم الخميس ١٣ من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ وأدار عليه السور .

وكان الشروع فى بناء الجامع الأزهر يوم السبت ١٤ من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ وفرغوا منه فى ١٧ من رمضان سنة ٣٦١ وكانت أول جمعة للصلاة فيه يوم ٧ من رمضان سنة ٣٦١ .

واختطت كل قبيلة خطة عرفت بها .

وتوالى العمران على القاهرة حتى أصبحت من أجمل مدائن الشرق فى سنوات قليلة .

وما نسينا أن الفاطميين قد عاشروا أهل الأندلس معاشرة جوار كل أيامهم الطويلة ببلاد المغرب لا يفصل الدولتين إلا مجاز ضيق وأن طبيعة التجاور كان من شأنها تبادل المنفعة فى التجارة والصناعة وسائر العلوم والفنون واقتباس العادات والأذواق .

وقد كانت دولة الفاطميين بالمغرب تستند إلى قبائل البربر وبخاصة قبائل

كتامة وصنهاجة وإلى بعض عناصر السودان وأهل صقلية، وكذلك كانت دولة الأمويين تستند إلى البربر من هواره وزناته وإلى السودانين وأهل صقلية .

وقد اختار الناصر اسم الزهراء لمدينته التي بناها وكذلك سمي قصوره الزهراء فاقتبس الفاطميون تلك التسمية فكانت قصورهم تسمى الزهراء ومسجدهم يسمى الجامع الأزهر . وما يدرينا وقد شهدنا توافق الخواطر في مزاج الدولتين أن تكون القاهرة قد بنيت على نسق مدن الأندلس من حيث أسلوب البناء ومزاج مهندسيها .

ويؤيد ما ذهبنا إليه أن المعز كان يرجو أن يفاخر شعراء المشرق بشاعره ابن هاني لو لم يغتله خصومه ، ولعله أراد أن يفاخر المشرق بمدينة القاهرة التي شادها على النمط الأندلسي .

لقد زار مدينة القاهرة سائح فارسي اسمه الناصر خسرو وقد مضى على انشائها خمسون عاما فوصفها هي والفسطاط في كتاب سماه سفرنامه فقال :

إن القادم إلى الفسطاط من بعيد يراها كالطود الشامخ فعائرها وغالب قصورها من سبع طبقات، أما تروتها فأخشى أن يرميني الناس بالغلو إن ذكرت تفصيل ثرائها ونعمة العيش فيها ، وأما القاهرة فقل أن ترى بين بلاد الدنيا

ما يشا كلها في حسن مبانيها، وقد أحصيت بها آلاف الخوانيت والحمامات
والدور والقصور والفنادق وكلها ملك للخليفة لأن الناس منعوا من البناء
داخل المدينة وغالب دورها من خمس طبقات أو ست، وترى قصر الخلافة
كالصرح العظيم في وسط المدينة وقد بهرنى طلاء المباني وحسن صناعته حتى
كأن منازلها قد بنيت من الأحجار الكريمة .

قرصان الشرق

كانت قبائل من العرب ومن الزنوج تقيم في إقليم الأحساء شرقي جزيرة العرب وفي جزائر البحرين بالخليج الفارسي وتغور هجر والقطيف .

فلما انتشر دعاة أهل البيت العلويين في ممالك الشرق يدعون للمهدي من أهل البيت من غير تعيين لاسم ذلك المهدي استجاب لهم كثير من الناس إجلالا لنسبهم الشريف .

فخرج بالكوفة والعراق والشام رجل يدعى الجنابي يدعو للامام محمد الحبيب والد عبيد الله المهدي جد الخلفاء الفاطميين ونشر دعوته في بلاد البحرين فالتف الناس حوله وأقاموا له في تلك البلاد دولة القرامطة فكانوا يدعون للخلفاء الفاطميين الذين بالمغرب وكان عامة المسلمين في الشرق لا يرونهم مثلهم من المسلمين لأن دعوتهم كانت على غاية من الاضطراب وعميدتهم منافية لشرائع الإسلام ولأنهم أشهروا حربا عوانا على سائر بلاد الإسلام فكانوا يغزون البلاد ليلا على طريقة قرصان البحار فيسلبون الأموال ويقتلون الرجال

ويسبون النساء ويعودون إلى جزائرهم. وتعاقبت غزواتهم من أول القرن الرابع
المجري فكتب الخليفة المقتدر العباسي إلى رئيسهم الجنابي كتابا لينا يحاسنه
ويسأله أن يطلق من الأسر من كان عنده من المسلمين ويناظره ويقم الدليل
على فساد مذهبه .

وكان الجنابي قد مات وقام بالأمر من بعده أصغر أبنائه أبو طاهر وهو
طفل في السابعة من عمره وقد أصبح بعد ذلك أكبر قرصان البر في
القرن الرابع .

فلما بلغ السابعة عشرة في عام ٣١١ هـ زحف على البصرة ليلا وتسورها
برجاله على سلايم من الشعر ووضع السيف في أهلها فلما علموا أنهم القرامطة
طرحوا أنفسهم في البحر من الخوف والفرع وراح أغلب الناس غرقا، وقتل
رجالهم وسبيت نساؤهم، وبعد عام وقف أبو طاهر يستقبل الحاج العراقي في
عودته إلى بغداد فقتل غالبهم ونهب أموالهم وترك الباقين في الصحراء حتى
ماتوا من العطش .

واشدد طمعه في ملك بني العباس فطلب من الخليفة أن يوليه البصرة
والاهواز فرفض فزحف إلى الكوفة وكان الحاج العراقي قد خرج في حراسة
فرقة من الجيش فقاتلها أبو طاهر وقتل عامة الجيش ورد الحاج إلى العراق ولم
يبحج أحد .

وفي عام ٣١٥ خرج أبو طاهر متحديا الخليفة المقتدر وسائر أمراء الشرق

فجمعت عليه الكتاب والجيش حتى بلغوا ثمانين ألفا وكان هو في عدد قليل
دون الثلاثة آلاف .

فهابه الناس وفر من وجهه الجنود والقواد وظلوا بعيدين عنه لا يجسرون
على قتاله فطغى وفرض الاتاوة على قبائل العرب التي بالجزيرة .

وجاء عام ٣١٧ هـ فتحدى أبو طاهر سائر العالم الإسلامي وغزا مهد
الإسلام مكة المكرمة ودخلها يوم التروية ونهب هو وأصحابه أموال الحجاج
وقتلوهم حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه وقلع الحجر الأسود وأرسله إلى
بلده هجر، فخرج إليه أمير مكة في جماعة من الأشراف وسألوه أن يرد إليهم
أموالهم فرفض فقاتلوه فقتلهم أجمعين وقلع باب البيت وأصعد رجلا ليقلع المئزاب
فسقط الرجل فمات وطرح القتلى في بئر زمزم ودفن الباقين في المسجد الحرام
حيث قتلوا وأخذ كسوة البيت فقسمها بين أصحابه ونهب دور أهل مكة .

فأنهالت عليه اللعنة من كافة المسلمين ورموه بالوثنية والمروق من الدين
وكان أشد الناس نقمة عليه عبيد الله المهدي القاطمي فكتب إليه ينكر عليه
فعلته ويلعنه ويقم عليه القيامة ويقول (قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا
اسم الكفر والإلحاد بما فعلت وإن لم ترد على أهل مكة وعلى سائر الحجاج
وغيرهم ما أخذت منهم وترد الحجر الأسود إلى مكانه فأنا برىء منك في الدنيا
والآخرة ثم أعقبه بكتاب قال فيه « والعجب من كتبك إلينا ممتنا علينا بما
ارتكبته واجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التي لم تزل الجاهلية

تحرم اراقة الدماء فيها وإهانة أهلها ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر الذي هو
يمين الله في الأرض يصفح بها عباده وحملته إلى أرضك ورجوت أن نشكرك
فلعنك الله ثم لعنك والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده .

فانحرفت القرامطة من ذلك اليوم عن طاعة الفاطميين ولكنهم لم يكفوا
عن غزو بلاد العراق أيام الحج، فخرج أبو طاهر في عام ٣٢٣ يقطع طريق
الحاج من العراق فتصدى له جماعة من العلويين الأشراف بالكوفة وسألوه أن
يكف يده عن الحاج فكف عنهم ولكنه أمر ألا يحجوا .

وحاول الخليفة العباسي أن يسترد الحجر الأسود وعرض أحد أمراء
الترك ببغداد على أبي طاهر خمسين ألف دينار على أن يرد الحجر فلم يقبل .
وجاءت أيام المنصور والد المعز فدخل القرامطة في طاعته فاشتراط عليهم
أن يردوا الحجر الأسود فردوه وكان ذلك في عام ٣٣٩ فكث في حوزتهم
اثنين وعشرين سنة .

ورد الاخشيذ عدوانهم على الشام ومصر لقاء ضريبة قدرها ٣٠٠ ألف
دينار كل سنة

فلما جاء المعز الى الحكم جعل يداريهم كل أيامه التي قضاها بالمغرب
ليكونوا شاغلا يشغل عنه الشرق ، وظل يهاديهم سياسة منه، ثم دخل جوهر
مصر فاتحاً باسم مولاة المعز وأنفذ جعفر بن فلاح لفتح الشام ووصاه المعز
بالأ يعطى القرامطة شيئاً من المال الذي فرضوه على الشام كل عام، وكتب الى

رئيسهم الحسن بن طاهر وأغلظ له ، فخلع الحسن طاعته وسار الى بغداد
وسأل الخليفة المطيع أن يمدّه بالمال والرجال ويوليه الشام ومصر ليخرج منها
المعز فامتنع المطيع وقال : (كلهم قرامطة على دين واحد)

فخرج الحسن بن طاهر يحمل أعلام العباسيين السوداء وتظاهر أن
الخليفة قد وآاه وأنفذ قائده الأعصم الى دمشق وكان عليها جعفر بن فلاح
فاستهان بالقرامطة ولم يحترز منهم فكبسوه بظاهر دمشق وقتلوه وأخذوا ماله
وسلحه وملكوا دمشق ثم ساروا الى الرملة واستولوا على جميع ما بينهما من
البلاد ثم ساروا الى مصر فانضم إليهم خلق كثير من العرب من قبائل طي^٥
والجند وفلول من جنود الاخشيد وكافور

فتأهب جوهر لقتالهم وحفر الخندق حول القاهرة من الشمال وبني قنطرة
على الخليج من الجانب الغربي للمدينة وعبأ جيشه المغربي ومن انضم إليه
من المصريين

وصحّت لديه فراسة المعز الذي ضاعف له السلاح والمال والرجال لأنه
سيلقى من القرامطة يوماً عصبياً دونه أيام الشرق بأسرها وهم الذين استهانوا
بأعظم حرّامات الاسلام ودنسوا بيت الله وحرّمه ونقلوا الحجر الأسود كيف يبانون
بامام الشيعة وجيوشه .

وفي أول المحرم سنة ٣٦١ هـ بلغت القرامطة عين شمس وانتشروا
في نواحيها .

فأمر جوهر أهل مدينة مصر بالخروج لمعونتته وأن يدفعوا العدوان عن
أنفسهم وطلب الأشراف العلويين أول الناس

فخرج أولهم أبو جعفر مسلم الحسيني في أولاده وعبيده
ونصب خيامه إلى جانب عسكر جوهر وخرج كثير من الناس، وفي
شهر ربيع الأول التحم أول قتال مع القرامطة على باب القاهرة وكان يوم جمعة
فقتل من الفريقين جماعة وأسرى جماعة وأصبحوا يوم السبت متكافئين
ولم يغفل جوهر ما وصاه به المعز من بذل المال إلى أقصى حدود السخاء
إذا اشتد حرج الموقف فأنفذ دعاته بأكياس الذهب إلى قبائل عقيل وطى
والى أتباع كافور وأتباع الاخشيذ الذين مع القرامطة فملاً غرائهم بذهب
المعز ومناهم بالوعود فتخلفوا عن صفوف القرامطة ووعدوا بالانصراف عنه
إذا قاتله يوم الأحد

وجاء يوم الأحد فسار الأعمش بجميع عساكره ومشى للقتال على الخندق
والباب مغلق، فلما زالت الشمس وحل الأجل المضروب بين جوهر والقبائل
وسائر الجنود فتح الباب وخرج بجنوده وقاتل القرامطة أحسن قتال ولم يمكث
الأعمش طويلاً في القتال لأن حلفاء من العرب وأجناد الترك تخلفوا عنه
فولى منهزماً وقتل من أتباعه خلق كثير ولم يتفق للقرامطة أن كسروا أفتح
من هذه الكسرة ونادى جوهر يشجع المصريين والعرب من جاء بالقرمطي
أو برأسه فله ثلاثمائة ألف درهم وخمسون خلعة وخمسون سرجاً بدواها

وفر القرامطة من مصر وعادوا الى بلادهم يتجهزون للغزو مرة ثانية وكان المعز قد دخل القاهرة وتناول بيده زمام دولته وانصرف لتنظيم الدواوين وندب الولاية للأقاليم ، فسمع بمسير القرامطة لقتاله فكتب الى رئيسهم الحسن ابن احمد كتاباً يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيته ، وان دعوة القرامطة تنصرف إليه وإلى آل بيته وآبائه من قبل ووعظه وبالغ في تهديده ، وكان القرمطي قد عزم على قتال المعز فاجترأ عليه وكتب اليه يقول : وصل كتابك الذي قلّ تحصيله وكثر تفصيله ونحن سائرون إليك على أثره والسلام

وسار حتى بلغ مصر وكان ذلك عام ٣٦٣ فجزل بعسكره عين شمس كما فعل بالمرّة الأولى وأنشب القتال وبث السرايا في البلاد ينهبونها فكثرت جموعه وأتاه من العرب خلق كثير وأولم حسان بن الجراح الطائي أمير العرب بالشام ومعه جمع عظيم ، فلما رأى المعز كثرة جموعه استعظم ذلك ولم يخرج الجيش لقتاله واستشار أهل الرأي من نصحائه فقالوا ليس من حيلة إلا السعى في تفريق كلمتهم وإلقاء الخلف بينهم ولا يتم ذلك إلا بابن الجراح الطائي أمير العرب فابتسم المعز لشبوع سياسته بين زعماء دولته، وراسل ابن الجراح وبذل له ١٠٠ ألف دينار فمال إليه وكان قد حضر مع القرامطة طمعا في الغنائم من أى طريق فاستحلفه المعز فخلف أنه إذا أخذ المال المقرر انهزم بالقبائل التي معه .

وكان المعز قد أعد له دنائير من نحاس ألبسها الذهب وجعلها في أسفل

الأكياس وجعل الذهب الخالص من فوقها وحمل إليه المال وواعده ابن الجراح
بأنه سيخرج بعسكره مع القرمطى يوم كذا من ناحية كذا ووصاه بالخروج
إلى قتاله فإنه متى زأى جيشه قتل منهزما ففعل المعز ما وصاه به الجراح فانهزم
العرب وبقى القرامطة فنالهم من القتل والأسر ما لم يسمعوا مثله ، وفرت فلولهم
إلى بلادهم على أن يستأنفوا الغزو بعد موت المعز الذى استطاع أن يكبح
جماحهم دون سائر ملوك الأرض .

منازل العنز

ما ودع المعز قائده جوهر وسرحه بجيوشه الجرامة إلى مصر في عام ٣٥٨ هـ حتى خرج عليه الثائر الذي لا ينام عن التمرد والعصيان وهو أبو خزر الزناتي والتف به جموع زناته كعادته وأيامه السالفة وأراد اقتحام الدروب إلى جبل أوراس وكانت مدينة باغايه مفتاح تلك الدروب والمعز عامل عليها من قبيلة كتامة المخلصة كان يوصيه باليقظة والحذر ومراقبة الدروب المفضية إلى الجبل وبت العميون بين قبائل زناته التي لا تكتم بغضه وأهل بيته .

على أن المعز خرج بنفسه هذه المرة يقاتل ابن خزر وقد عزم على استئصاله ففر ابن خزر إلى الصحراء وتوارى بها لبضعة أشهر ثم عاد مستأمنا يسأل الصفح فغلب المعز عفوه وسماحة خلقه ولكن الرجل كان خسيس الطبع ليس فيه موضع للندي فبادر لآخر مرة في حياته وجنح إلى العصيان فسلط المعز عليه عدوه وعدو زناته بأسرها وهو زيري بن مناد الصنهاجي فلحق به في أوعار الجبال وكان ابن خزر قد سُمّ المطاردة فقتل نفسه وحقم بذلك أشقى

حياة سمع بها الناس لرجل كرس نفسه أربعين عاما لمقاتلة الفاطميين ثم مات
آخر الأمر ميتة الأديباء وقد أتم الحلقة العاشرة من العمر .

وسر المعز لموته فقد فل به حد زناة بأسرها واستأذن عليه شاعره ابن
هاني مهنتا فقال :

هذا المعز وسيف الله في يده	فهل لأعدائه بالله من قبل
وهـ خيله غرا مسومة	يخرجن من هبوات النقع كالشعل
لقد قصمت من ابن الخزر طاغية	صعب المقادة أباء على الجدل
إذ لا يزال مطاعا في عشيرته	تلقى إليه أمور الزينج والبجل
ومن جبابرة الدنيا الذين خلوا	وأنزل الله فيهم وحيه فتلى
لم يلق جالوت من داود ما لقيت	شراؤه منك في حل وفي رحل
فمن ظباك إلى عليا قنك إلى	نار الجحيم فما يخلو من النقل

وتضاعف سرور المعز بوصول البشري من عند جوهر بفتح مصر وإقامة
الدعوة بها والدعاء له على منابرها وتوافدت ملوك البربر ورؤساء العساكر إلى
المنصورة للهنا ففتحت لهم أبواب القصر وجلس المعز مجلسا عاما يستمع إلى
الشعراء والخطباء فكان أعظمهم روعة وأسماهم خيالا شاعره العبقري ابن هاني
وقد اخترنا القليل من تلك الرقائق الذهبية وهي :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر فقل لبني العباس قد قضى الأمر

وقد جاوز الاسكندرية جوهر تطالعه البشرى ويقدمه النصر
وقد أوفدت مصر إليه وفودها وزيد إلى المعقود من جسرها جسر
فما جاء هذا اليوم إلا وقد غدت وأيديكم منها ومن غيرها صفر
فلا تكثروا ذكر الزمان الذي خلا فذلك عصر قد تقضى وذا عصر
وذا ابن نبي الله يطلب وتره وكان حر أن لا يضيع له وتر
أفى الشمس شك أنها الشمس بعدما تجلت عيانا ليس من دونها ستر
ألا تلکم الأرض العريضة أصبحت وما لبني العباس في عرضها فتر
فقد دالت الدنيا لآل محمد وقد جررت أذيالها الدولة البكر
وما ضمر مصرأ حين ألت قيادها إليك أمد النيل أم غاله جزر

وتواترت بعد ذلك كتب جوهر على المعز بفتح الشام وعبور القرامطة
وقتالهم ويلج عليه بالرحيل إلى الشرق قبل أن يستفحل الأمر .

وأراد المعز أن يختار للمغرب رجلا يحكمه من بعده يكون صلب العود
تسنده من ورائه عشيرة قوية الساعد عريقة المجد وتكرهه زناته كما تكره
البيت العلوي، وجال بخاطره أمراء كتامة وهي صادقة التشيع ولكنها لا تجاور
زناته في المناخ وقد فنى أبطلها في سبيل دولته وتأسيسها وتسكين الثورات
عليها وندب بقيتهم لفتح مصر والشام ورأى بثاقب رأيه أن قبيلة صنهاجة هي
هدفه وغاية مطلبه وأن بلكين بن زيري سيدها أليق الرجال وأقدرهم لخلافة

المغرب، وكان ينافس في المنزلة في ديوانه جعفر بن علي الأندلسي الذي جعله حاكما على إقليم الزاب بأسره متحكما في رقاب زناته .

ورأى المعز أن جعفرا لا يداني بلكين بن زيري في شجاعته ونفوذه وعداوته الموروثة لزناته وكان قد أشرك معه عمه الأمير أبا طالب في اختيار خليفته فقال له سأريك يا عمنا دخائل الرجلين الواحد بعد الآخر .

واستدعى المعز جعفرا ليتعرف خفاياه ومطامعه وكاشفه برغبته في استخلافه على المغرب فقال « تترك معي أحد أولادك أو اخوتك يجلس في القصر وأنا أدبر ولا تسألني عن شيء من الأموال لأن ما أجببه يكون بازاء ما أنفقته وإذا أردتُ أمرا فعلته من غير أن أنتظر ورود أمرك فيه لبعدها بين مصر والمغرب ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره إلى » .

فغضب المعز وقال يا جعفر عزلتني عن ملكي وأردت أن تجعل لي فيه شريكا في أمري واستبددت بالأعمال والأموال دوني ثم فقد أخطأت حظك وما أصبت رشداك .

فخرج عنه ثم استدعى بلكين بن زيري وقال له تأهب لخلافة المغرب فأكبر ذلك وقال :

« يا مولانا أنت وأباؤك الأئمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صفا لكم المغرب فكيف يصفولي وأنا صنهاجي بربري، قتلتنى يا مولانا بغير سيف ولا رمح » فما زال به حتى أجاب بشرطة أن المعز يولى القضاء

وانخراج لمن يراه ويختاره ويجعل الخيز لمن يتق به ويجعله قائما بين أيدي هؤلاء فمن استعصى عليهم يأمره هؤلاء به حتى يعمل به ما يجب ويكون الأمر لهم ويصير كالخادم بين أولئك .

فأحب المعز ما قال وشكره فلما انصرف التفت أبو طالب إلى المعز وقال « وتثق يا مولانا بهذا القول من يوسف وأنه يقوم بوفاء ما ذكر » .
فقال المعز :

يا عمنا كم بين قول بلكين وقول جعفر، فاعلم أن الأمر الذي طلبه جعفر ابتداء هو آخر ما يصير إليه أمر يوسف، وإذا تناولت المدة سينفرد بالأمر ولكن هذا أولا أحسن وأجود عند ذوى العقول وهو نهاية ما يفعله .

ورجع جعفر من عند المعز مغضبا وقد أصر على الخروج إلى الأندلس والحق ببلاط خليفته المستنصر واتصل بزعماء زناته وكاشفهم بذلك ورجع عنده أن المعز لن يعدل ببلكين أحدا فسيكون خليفته على المغرب وكره أن يعيش في بلاد تحت ولاية عدوه الصنهاجى .

وعرف زيرى وولده بلكين ما دار بنفس جعفر فنقلاه إلى المعز .
وغادر جعفر مدينة السيلة حاضرة ولايته وانحدر إلى عشاير زناته وعبأها للحرب وما كان زيرى قد أخذ أهفته فجأه جعفر وقتله وحمل رأسه إلى الخليفة المستنصر الأموى مع وفد من وجوه زناته على رأسهم أخوه يحيى بن على يهدون له الأمر .

ولحق بهم جعفر فأقام ببلاط الأمويين بغرناطة حتى كانت أيام المنصور
ابن أبي عامر فاستعان بهم على تأديب العصاة الخارجين عليه .

ورأى المعز أن يؤيد بلسكين بعد قتل أبيه زيري فولاه مكان أبيه وضم
إليه ولاية الزاب بأكملها وحكمه في رقاب زناته خصومه .

وشرع المعز بعد ذلك يتجهز للرحيل إلى مصر وقد استحثه جوهر وألح
عليه في الحضور لأن القرامطة قتلوا جعفر بن فلاح القائد الكتامي على أبواب
دمشق ودخلوا مصر ليحاربوه عليها .

وقبل أن ينتهي عام ٣٦١ الهجري بأيام كان المعز قد فرغ من شؤون
المغرب فعقد بمدينة المنصورة مجلساً عاماً من كبار الدولة وشيوخ القبائل في
يوم الأربعاء ٢٣ من ذي الحجة سنة ٣٦١ وأعلنهم أنه سيرك البلاد إلى مقره
الذي اختاره بمدينة القاهرة وقد استخلف عليهم بلسكين بن زيري الصنهاجي
فعلهم أن يسمعوا له ويطيعوا ، واستدنى منه بلسكين أمام المغرب وسماه
يوسف وكناه أبا الفتوح واختاره له مدينة القيروان مقراً لحكومته ثم خلى به
وأوصاه بما رآه من وجوه المصلحة في حكم القبائل المتنافرة وأكد عليه في
فعلها ثم ختم وصاته فقال :

إن نسيت ما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء : إياك أن ترفع الجباية
عن أهل البادية ، والسيف عن البربر ، ولا تول أحداً من إخوانك وبنى عمك
فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك وافعل مع أهل الحاضرة خيراً

وكان الوالى على طرابلس عبد الله بن يخلف الكتامى وكان المعز يحبه
ويجمله فلم يجعل ليوسف بلكين سلطاناً عليه ولا على أحمد بن الحسن والى
صقلية ، وأفلح والى برقة فقد كان الجميع من أمراء كتامة المخلصين
وأمر المعز فخرج العمال وجباة الأموال باسم يوسف بلكين
وكان الجيش القائم الى مصر قد عسكر مع المعز بظاهر المنصورية من
آخر شوال سنة ٣٦١ فانقل الى ناحية سردانية وكان يميل الى سكنها الحسن
موقعها وكثرة ثمارها فلحق به رجاله وعماله وأولاده وأهل بيته وجمع له ما كان
في قصر المنصورية وسائر قصوره من أموال وأمتعة وذخائر وكنوز آياته من
عهد دخولهم المغرب

وارتحل المعز من سردانية في ٥ صفر سنة ٣٦٢ وفي ركابه يوسف بلكين
خليفته على المغرب وسائر ملوك البربر ورؤساء القبائل للوداع . ولما ودعهم
رطب لسانه بحمد الله وبالزيد من شكره فقد أنجز وعده وجزاه بما صبر على
بلاء بلاد المغرب جنة الدنيا وكنانتها ثم التقى نظره على توابيت آياته التي حملها
معه الى خير مقر من أرض الله الواسعة وجعل يطوى الأرض حتى دخل
طرابلس .

وكان بين جنوده فلول من زناة دسوا أنفسهم بين الناس تمويهاً وتضليلاً

فلما بلغوا جبال نفوسه فروا إليها ولحقوا بأخوانهم الاباضيين ولعلمهم تنكروا
بين القبائل في ركاب المعز ليبلغوا جبال نفوسه فلم يبال المعز بهم وحمد الله
الذي طهر أتباعه من المنافقين ، ودخل الركب العظيم برقة في أواخر رجب
سنة ٣٦٢ وكان في ركابه شاعره محمد بن هاني فأراحوا أياما على شاطئ بحر
الروم ثم أشرق عليهم الصباح يوما فوجدوا ابن هاني مقتولا بجانب البحر
وأكبر الظن أن قاتليه من الأمويين الذين كانوا يرصدونه من عهد أن أجاز
البحر إلى المغرب ولعلمهم من خصوم المعز الاباضيين الذين فر بعضهم إلى جبال
نفوسه فكبرهوا أن يحمل المعز إلى الشرق شاعر المغرب الذي لا يعادله من
بعده أحد .

وحزن المعز على موت ابن هاني وقال هذا رجل كنا نرجو أن نفاخر به
شعراء المشرق فعند الله نحتسبه .

وحدث السير فيبلغ الإسكندرية في ٢٣ من شعبان سنة ٣٦٢ فاستقبله بها سائر
أعيان البلاد ومعهم قاضي مصر أبو طاهر الذهلي فأحسن لقيامه ورحب بوجوههم
وخطبهم طويلا فقال :

إنه لم يأت مصر فاتحا ليزيد في ملكه ولكن ليدفع العدوان عن الأرض
المقدسة فقد شارف الروم بلاد الشام ثم وعظهم بما فتح الله من بليغ القول
حتى أبكاهم .

وسار إلى القاهرة حتى بلغ الجيزة وكان جوهر قد عقد له جسرا جديدا
فسار عليه إلى الجانب الشرقى من النيل .

وزين المصريون له مدينة مصر أجمل زينة وظنوا أنه سيدخلها لأنها
حاضرة الديار المصرية ومقر رجال الدولة وكبار العلماء والأشراف والتجار وبها
القصور والمساجد والمتاجر العظيمة، ولكنه لم يدخلها بل ساق ركبته إلى القاهرة
مقر الخلافة الفاطمية فكان من المعز عملا عظيم الدلالة لفت إلى القاهرة
الأنظار فأصبحت بعد ذلك محطا للرحال، وكان دخوله يوم الثلاثاء لسبع خلون
من رمضان سنة ٣٦٢ من بابها الجنوبي وكان حول ركبته بطون من كتامة
تدعى زويلة فأمر بأن يسمى ذلك الباب باسمهم تشريفا لقدرهم وتخليدا لذكورهم
فأصبح الباب القبلى يسمى باب زويلة، واعتاد الجلوس به فى دولة الترك متولى
حسبة القاهرة فسماه الناس باب المتولى .

ولما بلغ القصر خر ساجدا لله ثم صلى ركعتين شكرا لله الذى
مهد له ملك مصر وأدان لحكمه شعبا كريما، وصلى بصلاته سائر من
دخل معه .

واستقر بقصره بأولاده وحشمه واخوته وأعمامه وخواصه، والقصر يومئذ
فيه جميع ما يكون للملوك من عين وورق وجوهر وحلى وفرش وأوان وثياب
وسلاح وسروج وبيت مال بحاله .

وكان معه سبعة من قواد الصقالبة بجنودهم الذين كانوا يسمونهم الروم
وهم سعادة وريدان وعطوف وجودر ويانس ونادر وبرجوان .
فضلد أسماءهم على القطائع والحارات والأحياء التي نزلوها وإلى اليوم
تقرأ بين أسماء الأحياء درب سعادة والريدانية (العباسية) وحارة العطوف
والجودرية ودرب اليانسية ودرب نادر وحارة برجوان وحارة الروم
وأقام بقية العشائر بسائر الحارات والقطائع التي أنشأها جوهر شمالى القصر
وجنوبيه .

وفى أول الحرم من سنة ٣٦٣ انتشرت قبائل المغاربة الذين قدموا مع
المغز فى نواحي قرافة مصر فنزلوا دور الفسطاط وأخرجوا الناس منها
وكان المغز قد أمرهم أن يسكنوا أطراف المدينة ، فخرج الناس أهل
الفسطاط يستغيثون به فأمر بإخراج المغاربة من مساكن الناس وأن يسكنوا
ناحية عين شمس ، وركب بنفسه حتى شهد المواضع التي نزلوها وأمر لهم بمال
يننون به بيوتهم فشيدها فى الموضع الذى يعرف بالخنديق فى شمالى القاهرة
وهو اليوم حى الدرمداش وجعل لهم والياً وقاضياً وحظر عليهم سكنى مصر
أو المبيت بها ، وكان مناديه ينادى كل عشية لا يبيتن أحد فى المدينة من
المغاربة ، وكان المغز قد وصى جوهرًا باختيار منازل على النيل يبني بها قصرًا
جميلاً وبستاناً كبيراً لزوجته السيدة تفريد أم الأمراء ، فقام جوهر ببناء
القصر وتنظيم البستان على أجمل وجه وصناعة وزخرف

فخرجت أم الأمراء لأول عهدها بأرض مصر الى قصرها فما كان أحسن منه بين قصور الملوك والأمراء ، له شرف تمتد على النيل والبستان يحف به ، فقالت وهي تبتسم : تلك لعمرى « منازل العز » فتلقفها الناس وتناقلوها وتحدثوا بقصر السيدة تفريد ومنتزه منازل العز واختاره المعز لرياضته وتنزهه هو وسائر الخلفاء من بعده .

واعتكف المعز في قصره أياماً سبعة بعد سفر طويل ، فقد خرج من افريقية في الخامس من شهر صفر ، ثم دخل القاهرة في السابع من رمضان فحضى نيفاً وسبعة أشهر على ظهور الرواحل وبين المضارب . فلما كان في يوم النصف من شهر رمضان جلس للناس جلوساً عاماً في الإيوان الجديد وأذنهم بالدخول ، وقيل إنه جعل أكداس الذهب التي حملها من المغرب في هيئة الطواحين كتلاً متراسة على دعائم باب القصر الكبير رآها الناس فدهشوا من ثرائه ومن تراكم الذهب ببابه وأطلقوا عليه باب الذهب وضرب من عهدها المثل بذهب المعز .

ودخل عليه الأشراف من أهل بيته ممن كان معه بالمغرب ومن الحسينيين وبنى الحسين المقيمين بمصر وكان جوهر قائماً بين يديه يقدم الناس قوماً بعد قوم على مراتبهم وأقدارهم

وأقبل جوهر بهديته التي عبأها ، وكان هذا تقليداً متبعاً رأيناه يوم تولى

المستنصر الأموى بعد أبيه الناصر فقد حمل إليه وزيره من الهدايا ما يعجز
القلم عن وصفها فأراد جوهر أن يمشى على نسق ملوك المغرب فكان بين الهدية
مائة وخمسون فرسا مسرحة ملجمة منها مذهب ومنها مرصع ومنها معتبر، وإحدى
وثلاثون قبة على نوق بخاتى بالديباج والمناطق ، منها تسعة بديباج مثل
وصناديق مشبكة يرى ما فيها ، وبها أواني الذهب والفضة ومائة سيف محلى
بالذهب والفضة، ودرجان من فضة فيها جوهر وتسعمائة ما بين تخت وسفط فيها
سائر ما أعد له من ذخائر مصر

ومشى المعز الى الضريح الذى أعده جوهر ليكون مقرا لرفاة آبائه
فكان جناحاً عظيماً من القصر به القباب وأعمدة المرمر وقد ملئت سقفه
بالقناديل التى سلاسلها من خالص الذهب قوموها بخمسين ألف دينار وعرفت
بتربة الزعفران ، فوارى بها توايت آبائه وبها دفن المعز وسائر الخلفاء
وأبناءؤهم وكان موضعها جنوبى القصر ينزلون عندها فى المواكب العامة فلما
زالت دولتهم بقيت لتلك القبور كرامتها وحرمتها كل أيام الأيوبيين وسلطين
مصر من بنى قلاوون الى أن جاء عصر الظاهر برقوق وكان عصر ارباب وفتنة
فقام أحد الأمراء المسمى جركس الخليلي وكان سخيفاً جاهلاً فعمد الى قبور
الخلفاء فهتك حرمتها وهدمها وحمل عظام الموتى وبقايا الأئمة وألقاها على كيان
البرقية ، ولم يجد أحداً من الأمراء أو العلماء فيصده عن غيه ، وشيد فى مكان

القبور خاناً عظيماً يحمل الى اليوم اسم بانيه وإثم هتك الحرمات التي كانت
فيه وهو خان الخليلي المشهور الذي بنى لأول مرة عام ٧٩٠ هـ
وجاء السلطان قانصوه الغوري بعد ذلك في عام ٩١٨ فهدمه وجدد ببناءه
الباقى الى الآن ، وقد انتقم الله للآئمة أبناء الرسول من جر كس الخليلي فقد
قتل على أثر فعلته وألقيت جثته في الطريق تنهشها الكلاب

تيمم بن المعز

لقد أنجب المعز أربعة من الذكور فكان أكبرهم تيمم وبه تسمى المعز
وكان مولده بالمهدية عام ٣٣٧ في خلافة جده المنصور قبل مولد أخيه
العزيز بسبع سنوات .

جاء إلى الدنيا وقد صفا للفاطميين الجو وكفاهم الله شر الثائر أبي يزيد
فاستقروا في مضاجعهم إلى حين .

ودرج تيمم في أحضان النعمة وغذى برقيق العيش فترعرعت فيه سليقة
الأدب التي كانت شيمة آبائه فأنحدرت إليه من اصلاهم وأذكتها كثرة
المطالعة والتحصيل .

وكان جوادا سمحا عشير الناس يخالط ويداخل ويستمع إلى حديث
المجتمع وسمره وأغاني قياته .

وجال في عالم الأدب قديمه وحديثه وما قرض ابناء الخلفاء من الأمويين

والعباسيين من غزل وشراب وأغاريد فطبيع بطابع ابن المعتز العباسي ويزيد
الأموي ومن سما سموها من أبناء خلافت الأندلس الرطب و كان أبوه يرجو
أن يراه وليا لعهدده لذكائه وعلو همته وسخاء يده فأقنطه مزاج فيه دعة ومرح
ونزوع إلى ترف الحياة والمعاقرة وهي خلال تسموعها آداب الاخلافة فمال
إلى أخيه العزيز .

ودخل تميم القاهرة في موكب أبيه وقد أوفى على الخامسة والعشرين أنصر
ما يكون شبابا ووجاهها وفراغا من أعباء الملك فأخذته فتنة النيل بواديه الأخضر
وضياعه وبساتينه واسترقه عيش النعيم وأخلاق الأنداد من أهل البلاد وكثرة
الأعياد والمعاني بين نيروز وغطاس ووفاء نيل فتبسط في غمار ظل ظليل من
جنة الدنيا التي كانت تصبو إليها نفسه .

وأعجبته بركة الحبش أجمل منازل مصر بمجنوب القسطنطين فشاد لنفسه
في جوارها قصرًا وبستانا يشارفانها حتى إذا أقبلت أيام النيروز وخرج الناس
في المضارب والقباب والثياب الجميلة والأهل والولد والجوارى والقيان المسمعات
يأكلون ويشربون وينعمون خرج عليهم تميم في مائتي فارس من عبيده
بالعسس عليهم في كل ليلة إلى أن يقضوا من اللهو والتزهة حظهم وينصرفوا
فينامون كما ينام الإنسان في بيته آمنين لا يضيع لأحد منهم ما قيمته حبه .

ويركب تميم في عشارى ومن ورائه أربعة زوارق بها الفاكهة والطعام
والشراب فان كانت الليالى مقمرة والا كان معه من الشموع ما يعيد الليل

نهاراً ، فإذا مر بقوم واستطاب من غنائهم صوتاً طلب أن يعاد الصوت وسألهم عما ينقصهم من طعام أو شراب أو فاكهة فيأمر به ثم ينتقل عنهم الى غيرهم بمثل هذا الفعل عامة ليله ثم ينصرف الى قصره .

تلك لحظة عاجلة من أيام تميم نسوقها لتصوير ناحية من صدر العصر الفاطمي كان فيها ديباجة المجتمع في سماحة خلقه وزهوه ونشوة مرجه وكان أروع ما نشر من أدبه ما سار فيه على هدى سليقة الغضب لآبائه فتناول لابن المعتز قصيدته التي يسامى بها العلويين ويؤثر عليهم فضل آبائه فمنها :

قتلنا أمية في دارها	فكنا أحق بأسلابها
ولما أبى الله أن تملكوا	دعينا إليها فقمنا بها
ونحن وورثنا ثياب النبي	فلم تجذبون بأهدابها
لكم رحم يابني بنته	ولكن أرى العم أولى بها

فعارضه تميم بحديث ممتع نجزيه ببعضه فقال :

الأقل لمن ضل من هاشم	ورام اللحوق بأربابها
أعباسها كأبي حربها	على وقاتل نصابها
بنى هاشم قد تعاميتمو	نخلوا المعالي لأصحابها
أعباسكم كان في بدره	يزود الكتائب عن غابها
وفينا الإمامة لافيكمو	ونحن أحق بجلبابها

- ألسنا لباب بنى هاشم وسادتكم عند نسابها
ولو كان تميم من أصلاب اليهود كما زعم البعض ما تفتقت سليقته عن
غضبة الثائر لآبائه ، فمن مبادئ علم النفس أن رحم الرجل تظل موصولة
الوشائج بآبائه يدفعها إلهام القطرة والغريزة السليمة فيجيش صدره بما طبع
على صفحته

وما أصدق تلك المشاعر في تميم وهو يرثى جده الحسين فيقول :

توت لى أسلاف كرام بكر بلا

هُمُ لثغور المسلمين سداد

أصابهم من عبد شمس عداوة

وعاجلهم بالننا كشين حصاد

فكيف يلد العيش عفواً وقد سطا

وجار على آل النبي زياد

وقال معتزاً بأبيه وبسلطان الدنيا الذى دان لهم :

أنا المفتخر البالغ بالفخر مدى الفخر

أنا السيف الذى يفرى أنا الغيث الذى يقرى

أنا الصبح أنا الشمس أنا البدر الذى يسرى

أنا ابن الأنف الشم أنا ابن الأنجم الزهر

وسما به الفخر بأبيه فقال :

أنا ابن المعز سليل العلاء وصنو العزيز إمام الهدى

سما بي معد الى غاية من الجمد ما فوقها مرتقى
فَرَحْتُ بها فاطمي النجا ر حسينيه علوى الجنا
وإنا لقوم نروع الزما ن ولسنا نراع إذا ما سطا
ثم أثنى على أبيه ، والثناء الطيب ما كان سجية غير مأجور ، فقال :
إن المعز الملك الأغرا

لم يبق من بذل نداء حرا
قد ملك الناس معاد الدهرا
وإن غدا أسى وأعلى قدرا
لولاه لم نلق الندى والبرا
ولا رأينا الجود فينا جهرا

ثم تغنى بحلو الغزل فقال :

وشادن شرط الصبا مرهف قره عيني من تمناه
كأنما الحسن رأى وجهه إليه محتاجا فأغناه
ولاح برق الثغر من مبسم المسك والقهوة مجنناه
وقد اخترنا من أزاهيره القليل النافع العطر وديوانه جليل القدر لا يتسع
له مقام أفرد لأبيه .

ومات تميم عام ٣٧٤ في خلافة أخيه العزيز فتفجع فيه وسائر أهله ومجتمع
المدينتين مصر والقاهرة .

امير المؤمنين

تركنا المعز في قصره بين أبنائه واخوته وحاشيته يخلد في الظاهر إلى الراحة والتهجد والعبادة في بقية رمضان من سنة ٣٦٢ ولكنه كعادته دائم الحركة فكان يستقدم جوهرًا كل ليلة يستمع منه أحداث البلاد داخلها وخارجها وموقف العناصر المتنافرة من سكانها فقد كان أهلها من السلالات القبطية الباقية على المسيحية والتي اعتنقت دين الإسلام، ومنها سلالات العرب الذين نزلوا الحوف الشرقى وأسفل الأرض وسائر بلاد الصعيد، وفيهم الذين بالدروب ومسالك مصر الشرقية والغربية وأقاموا على بدوتهم، وفيهم بقية من الترك ممن ترك بنو طولون والاشقيديون فكان كل يدين بالعنصرية ويحن إلى القبيل.

أما الشيعة فقد تجمعت حول القاهرة معتزة بإمامها وملتقى أمانيتها فأعد المعز للجميع صدره الرحب فتجاوز عن مسيئتهم، وأدب الخارج منهم عن الجماعة، وتآلف النافر.

وأخذ يدرس أمراض مصر الإقليمية وما جنت على أهلها من الفجائع وأزمات الغلاء والقحط فرد ذلك جميعه إلى النيل الذي كان إذا شاء بعد مشيئة الله أحيائها وإذا شاء تجافى عن سقيها فتجلت بدميته وحسن تقديره وخرج على الناس بسياسة رشيدة اغتبط بها الناس .

ذلك أنه كان من العادات المرعية إذا بدأ النيل في فورته أن يقوم المذادون كل يوم بشهر أحواله ليعلمها الناس فأمر بإبطال ذلك لأن الناس كانوا يتخوفون كثيرا إذا سمعوا أن النيل توقف عن الزيادة في ابان العمر فيكتنزون الغلال ويمتنعون من بيعها طمعا في الكسب بارتفاع السعر ويحاول الأثرياء شراء المزيد من الغلال ليبيعوها بسعر عال فكان من وراء ذلك الغلاء والقحط وما أشبه الليلة بالبارحة .

لهذا أمر المعز أن يكتب له ولوزيره جوهر في كل يوم من أيام زيادة النيل بما زاده الله في مائه فلا يطلع عليه الجمهور إلا آخر الأمر بعد أن يستقر الحال فاستراح الناس وكف التجار عن اكتناز الغلال وإخفائها ودرت الأرزاق وعم الرخاء والاستبشار بالدولة البكر وجاء عيد الفطر فخرج أهل مدينة مصر إلى القاهرة ليروا خليفتهم لأول مرة في موكبه وتعاقبت صفوفهم شمالي القصر عند باب العيد وقد اصطف للمعز عشرة آلاف فارس .

وكان مصلى العيد بناء جميلا عليه قبة عظيمة خارج باب النصر فطلع

المعز على الناس وعلى رأسه الألوية وحوله القباب من الخجل فترجل عند المصلي وأقام صلاة العيد وقد ذكرنا تفصيلها في موضعها من آدابه .

وكانت المصلي حافلة بأهل مدينة مصر من سائر الملل والنحل الإسلامية فاطمأن الجميع للصلاة خلفه وفق شعائر مذهبه وتقاليده .

فلما فرغ من الصلاة صعد المنبر وسلم على الناس يميناً وشمالاً ثم أفيض عليه ستر كان على المنبر فحجبه عن الأنظار ولعل ذلك ليستكمل روعته فلا يرى الناس منه خلا في عمل من سنن الإمامة وربما كان ذلك ليكنوا الخليفة من تلاوة الخطبة من سطور في درج يحمله وقد روعى ذلك مع بقية الخلفاء ولو أن المعز كان في غنى عن التحفظ لكفايته التامة وقدرته العظيمة على الارتجال . وكان في أعلى درجة من المنبر وسادة من ديباج مثقل أعدت له فجلس عليها بين الخطبتين واستفتح بيسم الله الرحمن الرحيم وفقاً لتقاليد الشيعة الموروثة عن الأئمة .

وكان معه على المنبر وزيره جوهر وعمار بن جعفر وخادمه شفيع الذي يحمل المظلة على رأسه في الموكب .

وخطب الناس على سجيته أول خطبة سمعها المصريون وفيهم الأشراف العلويون والعلماء والحفاظ من أهل السنة وكبار الأمراء وسادات البلاد فبهروهم ذلك السياسي الحازم والقائد المحرب حين قلب إماماً بعيد المدى في دينه وخشوعه وخضوعه لربه ومملك مشاعرهم واستهوى ألبابهم حتى أبكاهم .

وانصرف في عسكره وأولاده الأربعة في الدروع السابعة وأمام الموكب
فيلان عظيمان حتى دخل القصر فأحضر الناس ومد لهم سباطا عظيما في أكبر
قاعة بالقصر وجلس بينهم وعتب على من تأخر منهم .

وبعد أيام حانت للمعز بعض العادات التي توارثها المصريون فأقرهم عليها
الإسلام من عهد الفتح وأفسح الخلفاء وولاتهم صدورهم لها بل شاركوهم في
أحيائها إلا ما تعارض منها مع آداب الدين، وكان النيل قد أوفى فخرج المعز
ليشهد حفل كسر الخليج وتنقل على الشاطئ حتى بلغ بنى وائل ومن خلفه
وجوه الناس وكان يسايره من خاصتهم أبو جعفر أحمد بن نصر ويسمى له
المواضع التي يجتازها .

ولأول مرة جهر المصريون له بالدعاء فقد ذاقوا عدله ولمسوا رفقته وعطفه
لما هم جنود المغاربة يغتصبون بيوتهم وأنطق السنة الحمد بصدقاته وبدرات
الذهب التي كان يلقها عليهم كلما خرج في موكبه .

وعطف بعد كسر الخليج إلى بركة الحبش ثم إلى الصحراء والخندق
الذي أسكن به المغاربة من جنده ومر بقبر كافور الاخشيدى فترحم عليه
وذكر صنيعه وصدق ولائه وحسن جواره وزار بعده قبر عبد الله ابن طباطبا
الحسنى وهو الذى نسب إليه ابن خلكان ما نسب من مقابلة المعز والقدرح
في نسبه للحسين وقد فصلنا ذلك في موضعه، ثم عاد المعز بعد ذلك إلى القصر .
وهل ذو الحجة وهو الموسم الأكبر للحج وكان المعز قد صنع مظلة عظيمة

للكعبة المشرفة فأمر بنشرها على إيوان القصر يوم عرفة ليراها الناس قبل إرسالها إلى الحرم الشريف فكانت أول سنة سنها ملك من ملوك الإسلام لعرض هدايا الكعبة وأكسيتها على جمهور المصريين تشويقا للحج وتنشيطا للهمم وإعظاما لمناسك الحج وشعائره .

وهل عام ٣٦٣ هـ وجاء يوم عاشوراء وذكرى مقتل الإمام الحسين رضي الله عنه وهو يوم حداد عند الشيعة فنشط جمهورهم بالتظاهر والمناداة بالرأي عند مشهد السيدة نفيسة والسيدة كلثوم ولحق بهم جنود المغاربة من كتامة وزويلة فأقاموا المناحة على الحسين فاحتك بهم أهل مصر من مذاهب أهل السنة فاعتدى عليهم رجال من الشيعة وكسروا أوانيهم وشققوا روايا السقائين وسبوا كل من تظاهر بالسرور أو التوسعة على نفسه وعياله في ذلك اليوم فثار عليهم بقية الناس وتلاحموا وأقفل الناس البيوت والمتاجر وكانت فتنة حمل خبرها إلى المعز فأمر بأن يمشی العقلاء بين الناس بالنصيحة والتوفيق وظن الشيعة أن المعز يناصرهم ويسايرهم على نزعاتهم فقويت نفوسهم وجهروا بسب الصحابة حتى أن رجلا منهم سب السيدة عائشة رضي الله عنها فغضب المعز وأمر به فشهريين ملا الناس ثم ضربت عنقه .

فازداد جمهور الناس إيمانا بسلامة عقيدته واعتداله واستغفروا من ظن

السوء به .

وجاء النيروز أول يوم من شهر توت القبطى وكان عيداً مصرياً تعطل فيه الأسواق ويقل سعي الناس في الطرق وتمنح الكسبي لرجال الدولة ولكن الناس كانوا قد أسرفوا في المنكر من أعمالهم فيه فكانوا ليلة النيروز يوقدون النار في الدروب والسكك وفي الصباح يقذفون بعضهم بالماء مخلوط بالخمير وقشر البيض ويتصافعون بالانطاع ويطوفون الأسواق في لعب ومرح ثلاثة أيام متوالية فنهى المعز عن صب الماء وإيقاد النار والمصافة وشدد عليها النكير فلما أصر الناس عليها حبس بعضهم وشهر بآخرين .

تلك بعض العادات والمواسم التي كانت تعرض للمعز من حياة المجتمع المصرى فصلنا بعضها تنويراً لآراء المعز في الأخلاق والعادات المصرية .

ولقد خلفت للمعز بعض الدول البائدة طوائف من الجند كانوا فلولاً من أيام الاخشيديين وأيام كافور فأصبحوا عالة على مالية الدولة يتبعون كل نائر ويؤيدون كل خارج ليكون لهم حظ من الغنائم والأسلاب وقد ناصروا القرامطة على جيش جوهر فاستألمهم بالمال ثم عادوا إلى نصرتهم على المعز نفسه ولكن المعز لم ييأس من استصلاحهم فألحقهم بطوائف من جنده وأرضاهم بالأرزاق الموسعة فأمن خروجهم بعد ذلك ونال ثناءهم وثناء التاريخ على سياسته الرشيدة .

واستدنى منه يعقوب بن كلس الإسرائيلى وكان من وجوه رجال كافور أهل الكفاية والمقدرة في إدارة الدولة فاستجاب فيه إلى بديهة التحرى وصدق

الفراسة وهي أحسن مواهبه وقلده الخراج وجميع وجوه أعمال الحسبة والسواحل والأعشار والأحباس والمواريث والشرطة وأشرك معه عسلوج بن الحسن الكتامى وهو من خلاء الكتاميين أسنده إلى يعقوب ليستقى من تجاربيه ويمتاز من كثرة مرانته على أعمال الدولة وكتب لها بذلك سجلا قرئ يوم الجمعة على منبر جامع أحمد بن طولون وكان هذا نظام إشهار المراتب الرفيعة ليعلمها الناس، فجلسا من غد ذلك اليوم في دار الامارة بجامع ابن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الأعمال وأفسح المعز صدره لأرباب الكفايات والعقول الناضجة دون أن يلتفت إلى عقائدهم وأديانهم فقد كان للقبض حظ وافر في دولته تقدم للرئاسة منهم كثيرون أشباه الرئيس فهد وعشرات من فحول صدر الدولة وكان شيخ الأطباء اسحاق بن سليمان الإسرائيلي حمله المعز من المغرب ولم ينس أثره من أبيه المنصور .

ووصى المعز ولده العزيز بأن يكثر من اصطناع ذوى الأقدار وأهل المعرفة بشؤون الدولة من سائر الأقطار فألقت المقاليد إلى الروم والأرمن والمصريين وإلى كل من رفعه قدره وسما به ذكاؤه وإخلاصه وأماتته فقد كان أمير الجيوش بدر الجمالى أرمنيا وهو الذى جدد للفاطميين شباب دولتهم، وكذلك كان أرمنيا وزيرهم الصالح طلائع بن رزىق وسائر وزراء الحافظ لدين الله الفاطمى . وأرضى المعز فهمه من حب العلوم واكتناز الكتب فشاد بالقصر مكتبة

الفاطميين التي ضرب بعظمتها الأمثال بكثرة مجلداتها ومصاحفها المنسوبة فكان
بها آلاف الكتب في الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة والحديث
والتاريخ والقتل والكيميا والروحانيات. وفيها خطوط ابن مقلة وابن البواب ..
وكانت خزائنها الأربعون في أجمل ناحية من القصر يدخلها راكبا ويظل
بها يختار من الكتب ما شاء ثم يعود .

ولم يقنع بمكتبة القصر التي جمعت آلاف المجلدات فحمل الكثير من
الكتب إلى مسجد القاهرة وهو الجامع الأزهر وإلى مسجد ابن طولون
والجامع العتيق، فحمل إلى الأزهر من المصاحف والخطات عددا عظيما ومكن
الناس من القراءة والانتفاع بما فيها .

وسار ولده العزيز سيرته فأنفق الأموال في زينة المسجد العتيق وابن
طولون وتزويدهما بالمصاحف .

وحمل المعز من بلاد المغرب ومن الأندلس صناع التصوير وكل نوابغ
الفتون الجميلة فكان أول من أفاد بمواهبهم زوجه السيدة تغريد فانها
شيدت لنفسها مسجدا جميلا بالقرافة واستأجرت له رجالا من كتامة يسمون
المزوقين كانوا يزوقون الجدران بألوان متعددة من الأصباغ إذا نظرت إليها
من ناحية كانت صورة تباير الحقيقة، وكذلك إذا نظرت إليها من ناحية
أخرى . وكان رئيس الجماعة رجلا اسمه الكتامي صنع صورة ليوسف عليه

السلام وهو في الجب عريان والجب كله أسود فكانت أول أثر للتصوير الفاطمي في صدر الإسلام قرأنا عنه ولكننا مع كثير من الأسف فقدنا أثره .

واعتماد المصريون بين الحين والآخر أن يطلع عليهم المعز بالجديد من آيات بديهته فقد كان محبا للجندية ونظامها تواقا إلى إنشاء معهد للدراسات العسكرية فبنى في شمالي القصر ثكنات كبار الأبناء المصريين الأشداء ذوى الأعواد الصلبة والقامات المديدة واختار لهم كبار القواد المجرىين في فنون القتال فسبق بذلك أوروبا بقرون عديدة في وضع أول أسس الفروسية وسأها حاجر الغلمان وجمع بها خمسة آلاف فتي فنبغ منهم كبار الأمراء والقادة وكانت كتائبهم أسبق الجيوش المصرية نجدة للدفاع .

وقد تركنا أسطول المعز مرابطا بالمهدية في مائتي سفينة فلما اتسعت رقعة ملكه ودانت له مصر وسوريا واليمن والحرمان الشريفان وخفقت رايته على مشارف المحيط الأطلسي وامتد نطاقها إلى المحيط الهندي ضاعف سفن الأسطول فتعددت بمصر دور الصناعة فكانت الصناعة بمدينة مصر واسكندرية ودمياط وتجاوز عدد السفن ستائة قطعة من الشوانى والشلنديات والمسطحات وإلى جانبها العديد من السفن التجارية .

وكان النيل يومئذ يجري لصيقا لمدينة القاهرة فكان ميدان محطة مصر الحالى بأسره مجرى له وكان للمعز منظرة عظيمة يشرف منها على الأسطول

ساعة العرض مكانها اليوم جامع أولاد عنان بأول شارع إبراهيم باشا فكانت السفن تجرى من صناعة مصر وتقوم بالمناورات بين يديه بأسلحتها ولبوذا وترمى بالمنجنقات وتفعل ما تفعله عند لقاء العدو ويحضر المقدم ورئيس الأسطول بين يديه. وكان عماد الأسطول رجال المغرب دون غيرهم ياحقون به على نظام التطوع فكانوا أسبق الغزاة إلى ركوب البحر والمخاطرة بأنفسهم . وكان أعظم أثر خالد المعز بسائر بلاد الشرق مدينة القاهرة التي تحمل اسمه ونسج حولها من حرمة وتقديسه فاخص بها نفسه وأهله وحاشيته وجنده وترك الفسطاط عاصمة للتجارة والاجتماع ورجال العلم والأدب والصناعة فكانوا يعملون نهارا في دواوين القاهرة ومراقفها ولكنهم يعودون ليلا للمبيت بمصر ، وكانت قصبها تمتد من باب الفتوح إل باب زويلة .

وكان لباب الفتوح من الحرمة والتقديس ما ليس لغيره من أبواب القاهرة فإذا غضب المعز على أحد من الناس خرج الرجل إلى باب الفتوح مكشوف الرأس واستغاث بعمو أمير المؤمنين فيؤذن له بالحضور إلى القصر .

وكان محظورا على جمهور الناس أن يمروا بقصبة القاهرة بحمل تبن أو حطب ، ولا يركض أحد فرسه بها ، ولا يمر بها سقاء إلا غطى الروايا وكانت دروبها وشوارعها وحوانيتها ودورها تنار ليلا .

وبقيت القاهرة حاضرة الإسلام الكبرى كل أيام الفاطميين حتى زالوا

من الدنيا عام ٥٦٧ بعد أن بسط الله سلطانهم بمصر والشرق مائتين من
السنين وازدادوا تسعا .

وشهد العاضد آخر الخلفاء مصرع الدولة وهو يوجد بنفسه .

وكانت الاحداث المؤلمة والحروب الصليبية وتواتر الفتن قد مجلت محنتها
فجاءها من سوريا صلاح الدين الأيوبي ومن ورائه نور الدين زنكي سلطان
دمشق والخليفة المستضى بالله العباسي وكلاهما ملح على هدم الفاطمية من
الدنيا فقطع صلاح الدين خطبة العاضد من مصر ودعى للمستضى العباسي
فمات العاضد في اليوم التالي وكان يوم عاشوراء يوم مات جده الحسين وكان
في الثانية والعشرين من عمره فخرن عليه صلاح الدين وجلس للجزاء فيه وبلغ
الغاية في توديعه إلى قبره ثم أخرج أهل الخليفة وأولاده وجعلهم منفردين في
دار على حدة وأبعد عنهم النساء حتى لا يتناسلوا حرصاً على إبادتهم .

واستطال أهل السنة على الشيعة بمصر وتبعوهم وأذلوهم فأصبحوا لا يقدر
على الخروج من دورهم فهجروا البلاد .

وكان أشد الناس فجيعة فيهم عمارة البيني الشاعر العظيم ، وما كان متشيعاً
بل كان سنياً فاستأواه بسخاء أنفسهم وبذل نعمتهم فرثاهم وأبكى الناس
وأذكرهم رثاء الأندلس وقال :

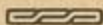
لهفي ولهف بنى الآمال قاطبة

على فجيعتنا في أكرم الدول

قدمت مصر فأولتني خلاتها
من المكّارم ما أربى على الأمل
يا عاذلى فى هوى أبناء فاطمة
لك الملامة إن قصرت فى عدلى
بالله زر ساحة القصرين وابك معى
عليهما لا على صفتين والجل
وقل لأهلها والله ما التحمت
فيكم قروحى ولا جرحى بمندمل
ماذا ترى كانت الإفريج فاعلة
فى نسل آل أمير المؤمنين على
سمرت بالقصر والأركان خالية
من الوفود وكانت قبلة القبل
غلت عنها بوجهى خوف منتقد
من الأعداى ووجه الود لم يمل
أسبلت من أسف دمعى غداة خلت
رحابكم وغدت مهجورة السبل
وبلغ من حب عمارة للفاطميين أنه انتمر مع نفر من دعائهم وأرادوا

الوثوب بصلاح الدين والعودة بدولتهم ففطن بهم صلاح الدين فصلبهم على
أعجاز النخل وكان عمارة أول من صلب .

والغريب المشاهد من أمر هذه الدولة العظيمة أنه مات في سبيلها شاعران
من أكبر شعراء العربية قتل ابن هاني * يوم إقبال الدولة وصلب عمارة اليمنى
فوق نعشها وكلاهما مات ضحية الحب والإخلاص .



دائرة المعارف الإسلامية

أوفى مرجع عن الحضارة الإسلامية

تصدرها

لجنة ترصمها دائرة المعارف الإسلامية

أحمد الشفناوى . عبد الحميد بونس

أبراهيم زكى نورسيد . حافظ جهول

تم إصدار المجلدات الخمسة الأولى

و صدر العدد السادس من المجلد السادس

الاشتراك السنوى عن ستة أعداد خمسون قرشاً

إدارة اللجنة

١٤ شارع حسن الأكبر مصر . ت ٤١٣٧٥

مجلة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

اعلام الاسلام

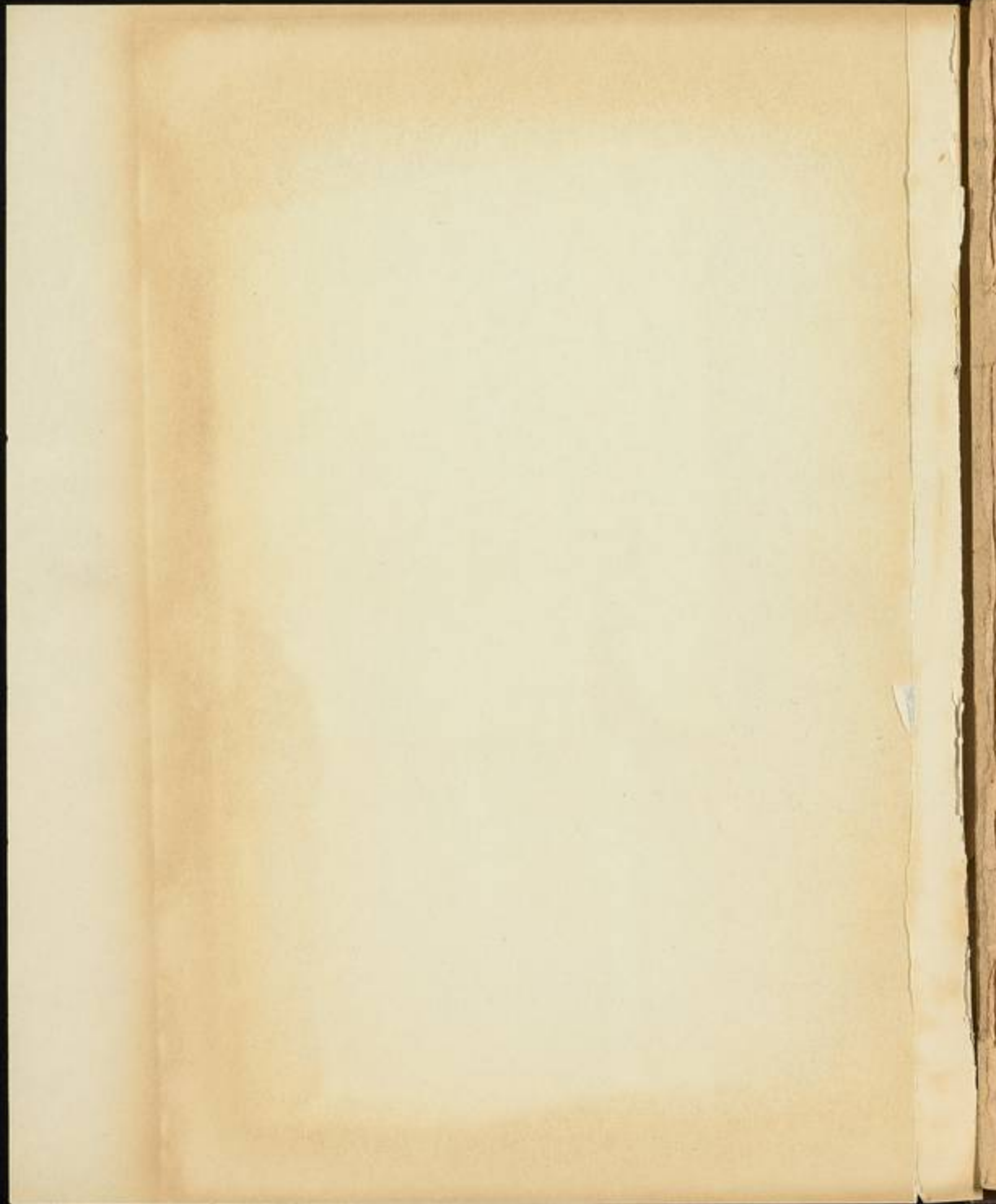
- ١ - عمرو بن العاص لستاذ عباس محمود العقاد صدر في مارس سنة ١٩٤٤
٢ - منصور الأندلس » علي أدهم » » ابريل
٣ - بشار بن برد » ابراهيم عبدالقادر المازني » » مايو
٤ - المعز لدين الله » ابراهيم جهول بك » » يونيه

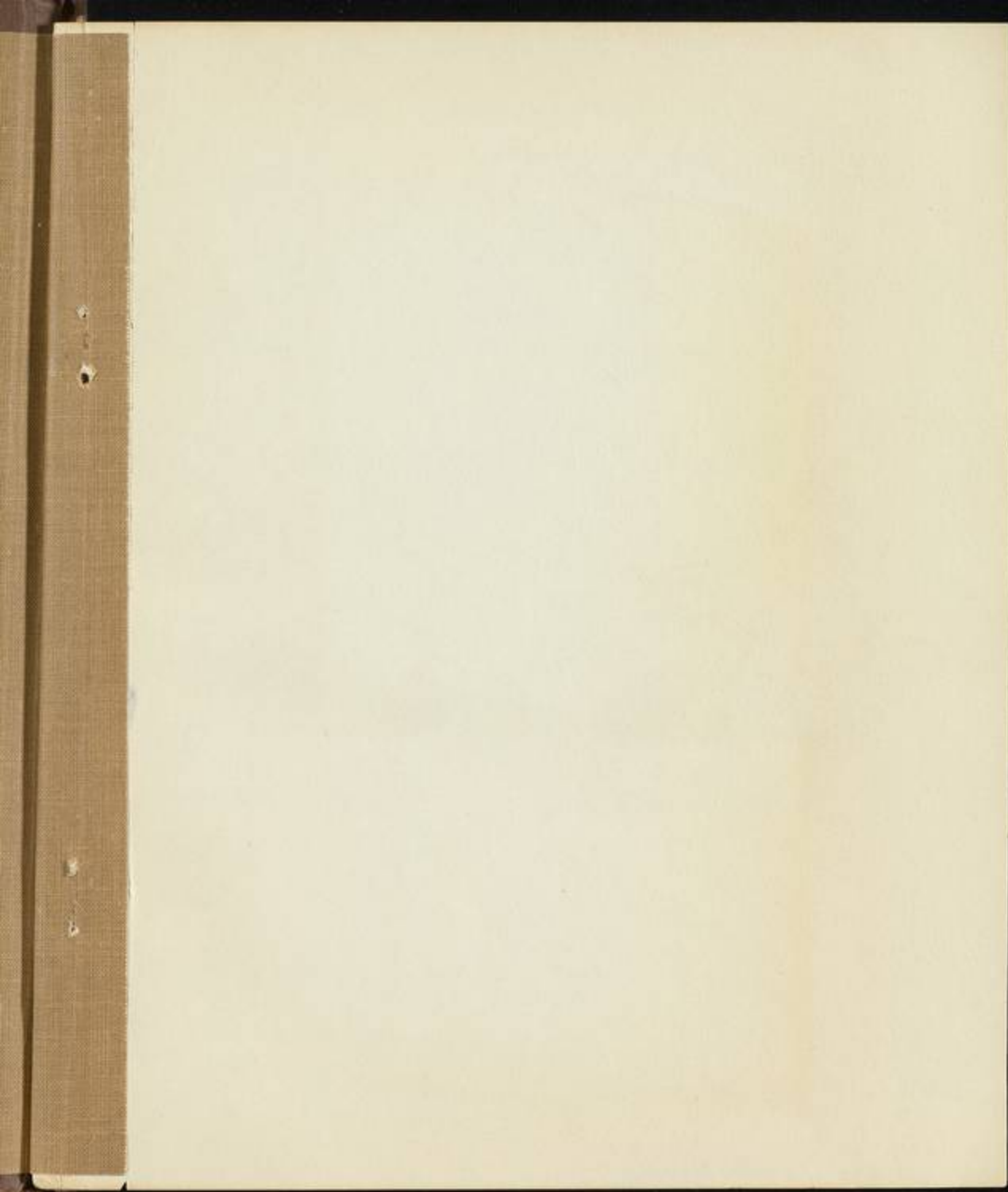
الكتاب الخامس

محمد عبده للدكتور عثمان أمين

يصدر في يولييه سنة ١٩٤٤.

مكتبة دار البعث والشراف
دار ابيكاه الكائن في القريه
عيسى السبا في الحلب وشركاه





893.791
J215

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58887539

893.791 J215

Muizz li-Din Allah.

RECAP

893.791 - J215